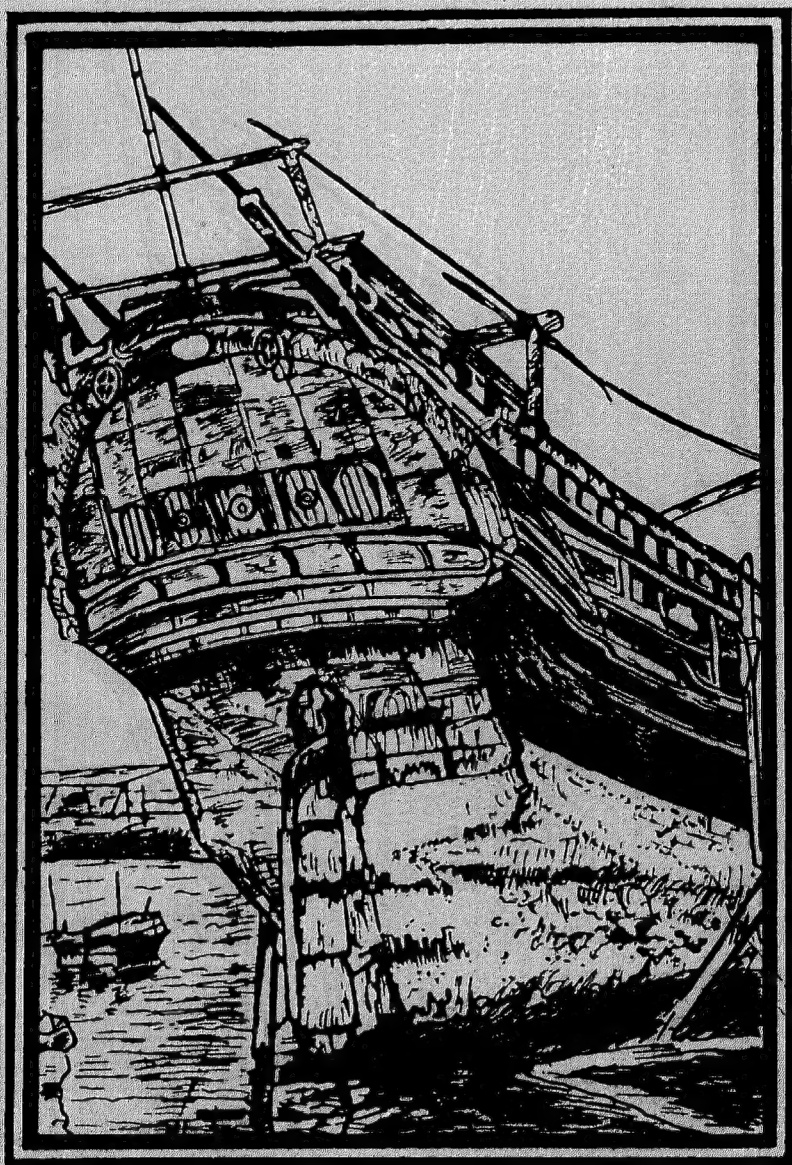


مكتبة دار
الكتاب العربي والاسلامي

عبدان وشرقي في القديسة



تأليف: أحمد محمود المصري
ترجمة: محمد أمين عبد الله

اهداءات ٢٠٠٠
ا.د. رشيد سالم الناضوري
أستاذ التاريخ القديم
جامعة الإسكندرية



سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

تراثنا

عبد الوشيق إفريقيّة

953.53

تأليف
أحمد حمود المعمرى

أحمد حمود المعمرى

رقم التصنيف: 953.53

رقم التسجيل: ١٧٤١٩

ترجمة
محمد أمين عبد الله

1. Please see the
attached copy of the



2. The following information
is being provided for your
information and is not to be
used for any other purpose.

3. The information is being
provided for your information
and is not to be used for any
other purpose.

4. The information is being
provided for your information
and is not to be used for any
other purpose.

تعريف

اطلع كثير من أصدقائي على مخطوط هذا الكتاب من قبل أن يأخذ شكله النهائي ، وقد قدموا إلى بعضاً من مقترحاتهم وآرائهم القيمة ، وإلى ثم مدين بذلك .

وأشكر أستاذى عزت عزيز عبده بوزارة الإعلام بدولة الإمارات العربية المتحدة لمصائبه المفيدة الخاصة بالأسلوب ، وصديقى عبد المنعم المجاني بمركز الأبحاث الزراعية فى عمان على مقترحاته الطيبة التى بدونها ما كان لهذا الكتاب أن يرى النور .

وأخص بالشكر الكثير السيدة بنية البوسعيدى ، فقد كتبت على الآلة الكاتبة النصف الثانى من النسخة الخطية الأولى للكتاب ، وكذا السيدة إيلين بالمر ، التى نسخت مخطوط الكتاب كله بعد إجراء بعض التعديلات عليه .

وفى النهاية أشكر ابنتى ماجدة ، وقد سألت أمها يوماً ، فقالت ، يا أماء ، ما الذى سيفعله أبى لو أن الورق نفذ من العالم .

أحمد حمود المعمرى

مايو ١٩٧٩

نيودلهى

تقديم

تشغل سلطنة عمان معظم الجزء الشرقى من الجزيرة العربية ، وتحدها مياه المحيط الهندى والخليج من جانبيين ، وتحيط بها رمال الصحراء من جانب آخر .

وعمان ليست أرضاً قاحلة كباقي بعض أجزاء الجزيرة العربية ، ففيها مصادر للمياه ، وإن كانت متواضعة ، على جانبي الجبل الأخضر ، وقد عمل الشعب العماني ، عبر أجيال عديدة ، على زيادة الكميات المتاحة من المياه عن طريق أنظمة دقيقة للرى ، ولهذا فإن حوالى ثلثى السكان يعتمدون على الزراعة ، اللى كانت المصدر الرئيسى لمعيشتهم طوال قرون عديدة .

ويعتبر الموقع الجغرافى المصدر الثانى الرئيسى من مصادر تشكيل التاريخ العماني ، فالشريط الساحلى لعمان يمتد لمسافة ١٧٠٠ كيلو متر على المحيط الهندى ، وتمر على طول هذا الساحل السفن المتجهة من الهند إلى إفريقيا ، ومن الهند إلى الخليج ، أو المتجهة إلى الهند .

ولم يكن عجباً أن تلعب الرحلات البحرية دوراً كبيراً فى ماضى عمان ، ولم يكن البحارة الرحالة العمانيون طوال ما لا يقل عن خمسة آلاف عام ، بغرباء على الهند ، والخليج ، وشرق إفريقيا .

ونظراً لكون عمان ركناً خصباً فى الجزيرة العربية ، رغم أن الصحراء تفصلها عن معظم شبه الجزيرة العربية ، فقد كانت تربطها صلات بالشرق والغرب ، وكان لها تاريخ عريق . وقد تطورت بها ثقافة فريدة تأثرت بأرجاء عديدة ، لكن جذورها ضاربة فى تاريخ الجزيرة العربية .

ويعود استيطان عمان إلى العصر الحجري . كما ترجح الدلائل الأولى للنشاط الإنسانى فى السلطنة إلى ٣٠ ألف عام قبل الميلاد على الأقل . ومنذ

عشرة آلاف عام ، توفرت المياه فيما يعرف الآن بالأطراف (الحواف)
الصحراوية لعمان . وقد خلف الصيادون الذين استوطنوها آثاراً تدل
عليهم ، خاصة الأدوات الحجرية الدقيقة الصنع التي تصنف ضمن أكثر
الأدوات تطوراً مما كان معروفاً عند إنسان ما قبل التاريخ .

و يعتبر أول دليل على اشتغال العمانيين بالبحر ، قديماً قدم الألف عام الثالث
قبل الميلاد ، ففي ذلك الوقت (تبعاً للكتابات المسماة) تعردت سفن ماجان (عمان)
أن ترسو بانتظام في أور « Ur » ، وفي أجزاء أخرى من بلاد ما بين النهرين
السومرية ، تحمل النحاس ، والديوريت (صخر بركاني متبلور) ، والمرمر ،
والبصل ، والأخشاب .

وكان أقدم اسم مدون لعمان - - حو الى ثلاثة آلاف عام بعد ذلك -
هو « مزون » ، ولا يوجد شك لدى الباحثين في أن « سفن ماجان » ،
قد وجدت في المنطقة الواقعة عند مدخل الخليج ، وأن عمان كانت مركزاً
لها . وتعتبر رحلات هذه السفن أقدم تجارة بحرية لمسافات طويلة في
تاريخ العالم .

وما زال التاريخ العماني القديم في أولى مراحله - - والذي يحوطه الغموض -
يمثل تحدياً للمراقب المدقق . فمن هم الناس الذين بنوا المقابر الحجرية
المتراصة كعخلايا النحل ؟ . ومن هم الذين تركوا هذه القطع الحجرية
التي عثر عليها في الخليجان الصغيرة على طول الساحل ؟ . ومن هم الذين
استخدموا الأدوات المصنوعة من الحجارة التي عثر عليها في رأس الحمراء .
وأى نوع من الحضارة تلك التي اعتمدت على هذه القنوات والأنظمة
القديمة للري ؟ .

إن بقايا الأواني الخزفية التي عثر عليها قرب مسقط ، وقرب السيب
في وادي الحزاي ، وقرب عبرى ، توضح أن عمان كانت جزءاً من

حضارة امتدت عبر فارس ، وإلى ما يعرف الآن بأفغانستان ، وبلوشستان ،
وغرب باكستان ، في الألف عام الثالث قبل الميلاد .

ولقد عثر في عام ١٩٧١ م على خنجر من البرونز قرب عبري تم التوصل
بعد فحصه إلى أنه صنع في القرن الثاني قبل الميلاد ، وأنه فارسي الأصل .

وتتحدث أسطورة تحيط باسم مزون إلى ما يشير إلى أن جزءاً من عمان
كان ضمن حضارة ذات أصول فارسية .

وما لا شك فيه أن أنظمة الري في شمال ووسط عمان ترجع إلى
أصل فارسي ، يعود تاريخه على الأرجح إلى عصر الإمبراطورية التي
أسسها سايروس الأكبر .

وإن القرب الوثيق لعمان من جنوب إيران يجعل من المنطقي تصور
أن عمان كانت لها روابط تاريخية مع فارس .

وما زالت عمان تطوى أسرار ماضيها ، ولولا تلك السنوات من العمل
الميداني الدؤوب والصبور في التنقيب عن الآثار ، وإلى أن يتم تحليل نتائج
هذا العمل ، فلن يكون أمامنا سوى الاعتماد على ما تم العثور عليه حتى
الآن ، نتيجة عمليات التنقيب .

ولقد كانت ظفار - المنطقة الجنوبية - حتى نهاية الألف عام الأولى
قبل الميلاد ، أهم مركز للنشاط التجاري . وأهم منتجاتها البخور ، وكذلك
اللبان الذي كانت له قيمة عالية في العصور القديمة كعقار ، ودواء ذي رائحة
عطرية .

وطالما كانت ظفار - تنتج أحسن البخور - وكانت أهم المناطق
المصدرة له . ومن هناك يصدر إما بجرأ من ميناء سمهرام والذي يعرفه
الكتاب القدامى باسم موسيبا ، وما زالت أطلاله باقية بالقرب من صلالة ،
أو عن طريق الجمال عبر حضرموت وعبر الصحراء العربية .

وكانت ظفار تشكل جزءاً من الثقافة القديمة لجنوب الجزيرة العربية ، وهي ثقافة سبأ وحميز ، ولا يعرف الكثير عن هذا الشعب ، حيث لم تجز حفريات أثرية كثيرة بهذه المنطقة . وتؤكد تقديرات اليونان والرومان الأهمية التجارية لجنوب الجزيرة العربية والتي نشأت على أساس تجارة ظفارة في البخور . ولقد ذهب الجغرافي « بلييني » إلى حد وصف سكان جنوب الجزيرة العربية في ذلك الحين ، بأنهم أغنى شعب في العالم .

وإن ما نحن متأكدون منه الآن هو وصول العرب إلى عمان . ففي القرن الثاني قبل الميلاد وصلت إليها موجات من القبائل المهاجرة من المنطقة المحيطة بسد مأرب في اليمن .

وأكبر مجموعتين من القبائل العربية التي دخلت عمان في هذا الوقت ، قد عرفت أولاهما باليمنيين ، وقد جاءت من جنوب غرب الجزيرة العربية مباشرة ، وعرفت الثانية باسم نزار ، وقد جاءت عن طريق نجد .

وتقول الروايات ، إن إحدى هذه الموجات كانت بقيادة نصر بن الأزد ، والثانية يقودها أبناء مالك بن فهم ، وهو أيضاً من نسل الأزد .

ونحن نعرف أن مالك بن فهم نفسه هو الذي قاد موجة الهجرة الأولى من العرب إلى عمان . ويقال إن اسم عمان مشتق من عمان بن قحطان ، شقيق يمن بن قحطان . ويقول آخرون أنه كانت توجد قرب مأرب قرية تسمى عمان . وعندما وصل العرب إلى عمان اكتشفوا مكاناً مشابهاً للمكان الذي يحمل اسم عمان والموجود في مأرب .

وعلى أية حال ، فقد لحقت بهؤلاء أعداد متزايدة عبر القرون ، منذ بداية سد مأرب وحتى انهياره في العقود الأخيرة من القرن السادس بعد الميلاد .

ولم تكن الهجرات وحيلاً مفاجئاً من وطن قديم يعقبه استيطان فوري

لوطن جديد . ولكنها كانت عملية انتقال لحيل يعقبه جيل ، حيث تنتقل
 قبيلة وغياً عنها من عالمها الذى أصابه الدمار ، فأصبحت فيه لا تجد به
 ما يغريها على البقاء، فتمضى موتاً أو إثنين حيث تجلب العواصف الممطرة
 الحياة إلى الأرض الخافة ، وحتى تصل فى النهاية إلى أرض خصبة ، تجرى
 فيها مجارى الماء ، وتنمو فيها الأشجار ، وتنتشر فيها المزارع التى تمتلئ
 بأشجار الفاكهة من كل الأنواع .

ولم تصبح هذه القبائل العربية سكانا مقيمين إقامة دائمة فى عمان إلا بعد
 دخولها الإسلام وطرد الفرس منها ،

فمن الطبيعى أن عمان كانت مأهولة بالسكان عندما وصل العرب إليها ،
 ولنا أن نتوقع أن العرب المهاجرين قد جاءوا إليها مثل أسراب الجراد
 القادم من الصحراء . فالجوع والإصرار دفعهم إلى أخذ ما يحتاجونه ،
 حتى لو قاتلوا من أجل ذلك إذا دعت الضرورة .

ولقد استوطن العرب أساساً قلب عمان ، فى الجبل الأخضر ، والوادي
 المحيط به الذى تجرى فيه المياه ، وفى الشرقية . ولم يكن وجودهم على
 الساحل كبيراً . وكان سكان الساحل خاضعين لملك من أصل فارسى هو
 ملك هرمز ، بينما كان سكان الجبال متمسكين باستقلالهم .

وكانت عمان من أولى الدول التى اعتنقت الإسلام فى عهد النبي محمد
 عليه الصلاة والسلام . كما كان التجار العمانيون طليعة الذين قاموا بالتجارة
 بين عواصم الصين الإمبراطورية وبين عواصم الإسلام . وأول عربى يبحر
 مسافة ٧٠٠٠ كيلو متر من خليج كافتون ثم يعود ، هو أبو عبيدة ، وهو
 عمانى ، وقد أبحر إليها فى القرن الثامن بعد الميلاد، أى قبل حوالى ٨٠٠ عام
 من اكتشاف كولومبوس لأمريكا . وكانت جرأة أبو عبيدة - مثله مثل
 كولومبوس - خطوة دفعت كثيرين من بنى وطنه لتقليده ، وهم أولئك
 الذين سيطروا على طرق التجارة إلى شرق إفريقيا والهند ، وما جاورها .

وفي حوالي القرن العاشر كانت العاصمة العمانية - صحار - من أهم الموانئ البحرية المطلة على المحيط الهندي . ووصفها جغرافياً ، ماحصراً لتلك الفترة ، هو الاصطخري ، بأكثر مدن عمان ثروة وسكاناً . وأضاف قائلاً : إنه من غير الممكن أن تجدد على شاطئ البحر الفارسي أو في كل أرض الإسلام مدينة أكثر ثراء بالمباني الجميلة أو البضائع الأجنبية من صحار . وقد تهدمت هذه المباني الكبيرة في صحار منذ وقت طويل ، لكن قلعتها - وهو الميناء العماني الذي حل محل صحار ، قد بقيت منه آثار تشهد على عظمته القديمة .

وقد اشتهر العمانيون في المصور الوسطى بأنهم بحارة وتجار .

وأنجبت الطائفة الإباضية - وهي العقيدة السائدة في عمان - عدداً من الزعماء الدينيين البارزين ، ولعب العمانيون ، الذين أقاموا في البصرة بالعراق لفترة أثناء القرون الأولى للإسلام ، دوراً أساسياً بين النخبة المتقفة في العالم الإسلامي . ومن بينهم الشيخ الخليل بن أحمد ، الذي كتب أول قاموس عربي .

وفي السنوات الأولى للقرن السادس عشر عندما ظهرت سفن أوربية - وهي السفن البرتغالية - في المياه العمانية ، فإن القوة البحرية العمانية أصبحت بتدهور خطير . وسقطت المدن الساحلية أمام الأسطول البرتغالي ، رغم أنهم لم يتوغلوا إلى داخل عمان ، وظلت عدة مدن ساحلية ، منها مسقط ، في يد البرتغاليين طوال ١٥٠ عاماً .

وفي عام ١٦٢٢م عندما طرد البرتغاليون من هرمز - وهي قاعدتهم في مدخل الخليج - أصبحت مسقط معقلهم الأساسي في الشرق الأدنى . وكانت دفاعات مسقط مدعمة تدعياً قوياً وتتكون من قلعتين كبيرتين ، وسور به أبراج للمدافع ، وكثير من التحصينات الفرعية .

ثم واجهت قوة البرتغاليين الاختيار عندما التحدت ضدهم قوات القبائل في داخل عمان على يد الأئمة من أسرة اليعاربة .

وفي عام ١٦٥٠ طرد البرتغاليون من مسقط . وكان طردهم ، على يد الحاكم اليعربي سلطان بن سيف ، إبداناً بفترة ليس لها مثيل من القوة والرخاء لعمان . فلقد أغار الأسطول العماني خلال الخمسين عاماً التالية على الأراضي التي يسيطر عليها البرتغاليون على طول السواحل الهندية والأفريقية . واستطاعوا قبل نهاية القرن أن يطردهم البرتغاليين من شرق إفريقيا ، وإن يضعوا الأساس للوجود العماني القوي هناك والذي استمر طوال ٢٥٠ عاماً . وواجه الأسطول البريطاني خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر صعوبة في دخول مياه المحيط الهندي ، حيث كانت عمان القوة البحرية المسيطرة في غرب المحيط الهندي .

وبلغ الرخاء التجاري العماني ذروته في أول عهد أسرة البوسعيد ، الأسرة الحاكمة حالياً . وكان مؤسس الأسرة الإمام أحمد بن سعيد قد انتخب إماماً عام ١٧٤٩ م ، بعد أن قاتل ضد الغزو الفارسي لعمان . وقد حصل على رفع قدرة الأسطول ، واستغل السفن الحربية في نقل التجارة في الفترات التي تترق فيها الحروب . وفي عهود أبناء الإمام أحمد ، نقل مقر الحكومة من مدينة الرسنق في الداخل إلى ميناء مسقط ، وهي خطوة ترمز إلى توسع النشاط التجاري لعمان .

وبعد وفاة الإمام أحمد أعظم الحكام البوسعديين الأولين ، تولى السيد سعيد بن سلطان ، وقد حكم عمان من عام ١٨٠٧ إلى عام ١٨٥٦ . وفي عهده تجاوزت الممتلكات العمانية حدود التوقعات ، فشملت زنجبار ، وأجزاء من شرق إفريقيا ، ومن جنوبي إيران ، وبلوشستان . وازدهرت التجارة خاصة مع شرق إفريقيا ، وتمتعت مسقط بأمن أكثر مما توافر بغيرها ، وتطورت إلى سوق هام ليس بالنسبة لعمان وحدها ، بل أيضاً بالنسبة لمنطقة الخليج ككل . واهتم السيد سعيد بتطوير التجارة في كل ممتلكاته .

وأدخل صناعة القرنفل إلى زنجبار بنجاح وصل إلى أن مزارح القرنفل

كانت قبل نهاية عهده مصدراً لثلث الدخل الحكومي في زنجبار . واليوم تنتج زنجبار ٩٠٪ من إنتاج العالم من القرنفل . وكانت الآفاق التجارية للسيد سعيد تمتد إلى مستوى العالم ، وفي عام ١٨٤٠ أرسل مبعوثه أحمد ابن نعمان بسفينة محملة بالسلع التجارية إلى الجمهورية الناشئة للولايات المتحدة الأمريكية . وكانت عمان في عام ١٨٤٠ هي أول دولة عربية توفد ممثلاً دبلوماسياً إلى الولايات المتحدة .

وبعد وفاة السيد سعيد قسمت الإمبراطورية البحرية التي حكمها . فقد تولى ابنه السيد ماجد وخلفاؤه حكم الجزء الواقع في شرق إفريقيا ، بينما خضعت عمان لحكم أكبر أبنائه السيد ثويني . وقد توافق مع تقسيم السلطنة هبوط حاد في الظروف التجارية . فتميل إلى حد كبير النفوذ البحري العماني الذي يعتمد على الملاحة ، وذلك نتيجة لظهور الملاحة المنتظمة بالسفن التجارية في ثمانينات القرن التاسع عشر ، ونتيجة لفتح قناة السويس عام ١٨٦٩ . وأدى اتساع الاستعمار الأوربي ومد الحماية البريطانية عبر المحيط الهندي ، إلى الحد بدرجة كبيرة من مصالح ومكاسب عمان في المياادين الدولية .

وأدى تآكل أسس الرخاء القديم لعمان ، إلى فترة من المتاعب السياسية للسلطنة . وتسبب التنافس بين الإمام في داخل عمان ، والسلطان في المنطقة الساحلية إلى الحد من دخل الحكومة ، وسببت النشاطات الشيوعية ضد الحكومة آلاماً ومتاعب للشعب العماني .

وبدأ التاريخ الحديث لعمان في عام ١٩٦٧ مع أول شحنة بترول تصدر للخارج ، وهو ما وفر للبلاد مصدراً كبيراً للدخل تحتاجه للتنمية . وبدأ سلطان عمان وقتئذ السيد سعيد بن تيمور ، في تنفيذ خطط لبعض مشروعات التنمية مستخدماً دخل البترول ، ولكنه لم يتحرك بالسرعة الكافية للاستجابة لمطالب الشعب بالتعليم ، والعلاج الطبي ، وغيره

من الخدمات . وعقب انتقال السلطة إلى جلالة السلطان قابوس في يوليو ١٩٧٠ ، بدأ عهد جديد ومستمر من التنمية والرخاء السريعين .

وكما يشير عنوان الكتاب « عمان وشرق إفريقية » فإن الموضوع الرئيسي هو ما حققته عمان لشرق إفريقية في مجالات الثقافة ، والاقتصاد ، والدين ، والتقاليد ، وقد نوقشت هذه الموضوعات لارتباطها بما كان يجري في عمان ذاتها .

وحتى نعرف عمان ، فإن القصة تبدأ بهجرة العرب من اليمن بعد الفيضانات التي أعقبت انهيار سد مأرب ، وتنتهي بالوضع الحالي لسلطنة عمان . وحيث أن الكتاب يناقش الأحداث التاريخية ، فلم يذكر إلا القليل عن الأمور الراهنة في السلطنة ، رغم الإشارة إلى بعض العناصر التي تعمل ضد الرخاء ، والتقاليد والثقافة المتميزة للبلاد .

ولقد استفدت هند التحضير لهذا الكتاب من أعمال كثير من المؤلفين ، لكن مسؤولية محتوياته تقع كاملة على عاتقي .

مارس ١٩٧٩ أحمد حمود المعمرى

مدير عام إدارة الثقافة والفنون

وزارة الثقافة والفنون

هذا الكتاب هو نتاج جهد جماعي ، حيث شارك في كتابته عدد من الباحثين والكتاب ، الذين قدموا مساهمات قيمة في مجالات مختلفة ، مما يجعله مرجعاً هاماً للباحثين والدارسين .

هذا الكتاب هو نتاج جهد جماعي ، حيث شارك في كتابته عدد من الباحثين والكتاب ، الذين قدموا مساهمات قيمة في مجالات مختلفة ، مما يجعله مرجعاً هاماً للباحثين والدارسين .

(١)

لا يوجد تاريخ مدون نعتمد عليه في الاستدلال على وجود مستوطنين
عمانيين قبل وصول العرب إلى هذه الأرض ، ولكن من المعتقد ، طبقاً
للروايات التي يتناقلها الناس واحداً عن آخر ، أن إحدى العشائر ، ويطلق
عليها « البياسرة » قد تكون أول من سكن عمان ، ونشأ فيها الشعب الذي
كان يستوطن أرض عمان قبل وصول العرب إليها .

ووفق الاعتقاد المعاصر فإن البياسرة إحدى الجماعات التي تعرضت
لهزيمة في الحرب ، بيد أن الرأي الأكثر تداولاً بين أفراد الشعب العماني
هو أن البياسرة عشيرة رفضت الدخول في الإسلام ، فكانت من نتيجة ذلك
أن وقعوا أسرى حرب ، غير أن هذا الرأي لا يمكن قبوله على ثلاثة ، لأن
الإسلام دخل عمان بعد سنوات من توطن العرب فيها ، ولأن العمانيين
قد اعتنقوا دين الإسلام سلماً بمحض إرادتهم ، فليس هناك أى دليل على
أن البياسرة كانوا ممن أسرى الحرب عند دخول الإسلام إلى عمان . والبياسرة
منتشرون الآن في أجزاء مختلفة من البلاد خاصة في الشمال ، وعلى طول
الساحل ، ويعيشون في ظل قبائل مختلفة .

وهناك عشيرة أخرى أصغر من البياسرة ، هي عشيرة شهوم Shihum
وتعيش في الإقليم الشمالى من عمان ، ومعظم أفرادها من الصيادين والرعاة ،
وهم يتحدثون إلى جانب اللغة العربية اللغة الفارسية ، وتبدو بشرتهم أكثر
صفرة من معظم العرب ، ومن المحتمل أن يكونوا هم أصل سكان عمان
الشمالية ، وقد دفعهم إلى جبال الشمال الهجمات المتتالية للغزاة :

وثمة عشيرة ثالثة أصغر ، وهي الزاتوت ، وأفرادها أشبه بالغجر ،
ولهم لغتهم الخاصة ، ومن عاداتهم ، أنهم لا يتزوجون من غير نساء
عشيرتهم إلا نادراً .

وفى الإقليم الجنوبي من سلطنة عمان ، ظفار ، يختلف الرعويون ، سكان جبال القرا ، فهم قليلون ، ولهم مظهر وزى مختلف عن باقي العمانيين ، ويتكلمون لغة ، تسمى الجبالية ، إلى جانب اللغة العربية ، ويشار إليهم عادة ببيت كثير ، والمهرة .

وفى منطقة العاصمة والمدن الساحلية الأخرى يوجد كثيرون من أصل إفريقى ، جاء أسلافهم وعاشوا فى عمان عندما كانت علاقة عمان قوية بساحل شرقى إفريقية ، وبخاصة زنجبار ، وأما الذين هم من أصل هندي ، ويعرفون باسم اللواتيين ، فقد سكنوا مدينة مطرح التجارية ، وعاشوا فى حى مغلق عليهم ، وما زالوا يحتفظون بلغتهم .

وأكبر الطوائف العمانية غير العربية طائفة البلوش ، وقد عاشوا فى مدينتى مسقط ومطرح ، وعلى طول ساحل الباطنة ، وجاءوا من ساحل مكران فى بلوشستان وجوار ، الذى ظل جزءاً من عمان حتى عام ١٩٥٨م وهناك قبيلة أخرى ، تسمى بنى بلوش ، وأفرادها من نسل قوة من الجنود ، جندت فى مكران عام ١٧٣٦ ، وقد اندمجوا الآن فى المجتمع العماني ويعيشون كقبيلة عربية فى الظاهرة .

وتوجد بين طائفة العرب مائتا قبيلة ، ولا يدخل فى مجال هذا الكتاب تفصيل القبائل العربية التى تعيش فى عمان ، ويكفى أن نذكر ، أن عمان مجتمع قبلى ، غير أن القوة القبلية الآن أقل مما كانت عليه فى الماضى ،

وهناك حقيقة هامة تستحق الذكر ، وهى ، أن العمانيين ، أياً كانوا ، بدون استثناء ، يتميزون بكرم الضيافة البالغ ، وتقضى تقاليدهم فى الضيافة ألا يأكل المضيف حتى يأكل الضيف ويشبع .

[illegible][illegible]

(٢)

عصر ما قبل العرب

استوطن عمان كثير من الأجانب في الماضي ، لكن الفرس من بينهم . بصفة خاصة . قد لعبوا دوراً ملموساً في تاريخ واقتصاد البلاد . فقد أقاموا على طول الساحل ، ومارسوا سلطتهم من مدينة صحار . العاصمة الساحلية حينئذ . وتعتبر الإفلاج أهم ما خلفوه وراءهم من تراث في عمان . وهي نوع من أنظمة الري يرجع إلى ألفى عام . ووسيلة للحصول على الماء للري بإنشاء قنوات جوفية تحت الأرض وشق طريق من هذه القنوات إلى المنطقة التي يراد ريها بأن يخترق القناة على امتدادها ممرات رأسية عند الحدود الفاصلة ، بطول يتراوح بين ٢٠ و ٥٠ متراً . ثم تتصل قيعان هذه الممرات بقناة طولية تتدفق منها المياه منحدره برفق لتصل إلى سطح أقرب مكان يتم ريه .

وأهم مظهر لهذا النظام في عمان هو إمكانية الاعتماد الكامل عليه ، حتى في فترات الجفاف الطويلة فلا يتوقف تدفق المياه في الإفلاج ، وإن كان يتضاءل خلال تلك الفترات ويعتقد أن هذا النظام قد ظهر في فارس أثناء حكم أسرة أرخميدس (Achaemenian) منذ القرن الرابع أو السادس قبل الميلاد) ، ثم عمل الساسانيون على تحسينه في الفترة الواقعة بين القرن الثالث والقرن الرابع الميلادي ، ونقله الفرس إلى عمان منذ ألفى عام على الأقل . وكان نظام الرأي بالإفلاج مصدر ازدهار للزراعة في عمان .

وكشفت عمليات التنقيب عن الآثار ، عن أن عمان كانت جزءاً من حضارة تمتد عبر فارس إلى البلاد التي تعرف الآن بأفغانستان ، وبلوخيستان ، وغرب باكستان في الألف عام الثالث قبل الميلاد . وتدل مجموعة المقابر الحجرية ، وقطع شظايا الآواني والأوعية الفخارية ، على طول الساحل ، (م ٢ - عمان وشرق إفريقيا)

وكذلك الأدوات المصنوعة من الحجارة ، وقطع الأواني الخزفية وغيرها .
على أن الحلقات الأولى من تاريخ عمان كانت عامرة بالحياة .

ويدل أحد الحناجر المصنوع من البرونز والذي عثر عليه عام ١٩٧١ في بلدة عبري في داخل عمان ، أنه فارسي الأصل ومصنوع في القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وتقول الراويات التي تحدثت عن اسم «مزون» أن هذا الاسم يشير إلى جزء من عمان كان ضمن حضارة تنتمي إلى أصول فارسية .

وقد كان بين عمان وفارس جوار وثيق ، وأنه لمن المنطقي وجود روابط تاريخية قديمة بين البلدين .

(٣)

مجيء العرب إلى عمان

تقول إحدى الروايات القديمة ، إن أول عربي جاء إلى عمان قادماً من اليمن هو عمان بن قحطان أخو يمن بن قحطان ، ومن ذلك الشخص استمدت عمان اسمها ، وهناك قصة أخرى تقول ، إنه كانت توجد في مأرب باليمن قرية تسمى عمان ، وعندما وصل العرب إلى عمان وجدوا قرية مشابهة لها ، فأسموها عمان .

والحقيقة المؤكدة هي أن موجات مختلفة من الهجرات من رجال القبائل التي كانت تقيم في المنطقة المحيطة بسد مأرب في اليمن ، قد نزحت إلى عمان واستقرت بها في القرن الثاني قبل الميلاد .

والرواية الأكثر قبولاً تقول ، إن إحدى هذه الموجات كان يقودها نصر بن الأزدي ، والأخرى يقودها مالك بن فهم الأزدي .

ويقال بالنسبة لهجرة مالك بن فهم الأزدي وجماعته أنه كان ضحية اتهام وهو في وطنه الأم ، وجهه إليه أحد رجال قبيلته ، بأن ابن أخيه قد قتل كلبه وقد اعتبر مالك هذا الاتهام إهانة لا تحتمل ، فقرر مغادرة البلاد .

والسبب الأكثر اتفاقاً مع المنطق هو أن تشويق سد مأرب قد أرغم أناساً كثيرين على مغادرة وطنهم والتجوال بحثاً عن مستقر جديد . وقد لحق بهؤلاء المهاجرين الأوائل أعداد متزايدة من المهاجرين عبر القرون . عندما زادت التشققات في سد مأرب حتى انهار تماماً في العقود الأخيرة من القرن السادس بعد الميلاد :

ولا يوجد ما يدعو للشك في أن الهجرات لم تكن زخياً مفاجئاً من وطن قديم يعقبه استيطان فوري في وطن جديد . ولكنه كان عملية

مستمرة خلال جيل بعد آخر ، وينتقل المهاجرون رغماً عنهم من وطن أصابه الدمار ، ويمرون بقفار جرداء بها قليل من أشجار الشوك ، وقليل من الطعام لا يقيم أودهم ، ويقاثلون أناساً يستوطنون هذه المناطق التي تقع في طريقهم إلى موقع هجرتهم النهائية ، حتى وصلوا أخيراً إلى أرض خصبة ، كثرة الأشجار ، والمزارع ، وحدائق النخيل ، وأشجار الفاكهة من مختلف الأنواع : هي عمان .

ولم يكن وصول العرب إلى عمان يعني السلام أو الاستقرار لهم ، لأنه كان في عمان بالفعل شعب يقطنها . وكان المجتمع الذي وجده العرب في عمان هو على الأرجح مجموعات من المجتمعات الريفية المتمتعة بالرخاء ، يضمها نظام إقطاعي أurstقراطي ، وتعيش على اقتصاد زراعي منظم يعتمد على نظام الري الذي أدخله الفرس .

وجاءت الهجرات العربية إلى هذه المجتمعات ، مثل أسراب الجراد القادم من الصحراء . وبدافع من الجوع والإصرار ، فمدوا أيديهم إلى كل ما صادفوه . بل ولجأوا إلى العنف عند الضرورة .

واستمر هذا الحال ، حتى أصبح العرب القوة المسيطرة في ذلك المجتمع ، تعززهم موجات الهجرات الجديدة التي لحقت بهم .

ويعتقد المؤرخون العمانيون أن مالك بن فهم الأزدي هو مؤسس عمان ، وأنه أقام خيامه قرب نزوى عند وصوله ، وفي ذلك الوقت كانت البلاد تحت السيطرة الأسمية لحاكم فارسي كان يحكم من عاصمته في صحار . وعندما استقر مالك بن فهم واستوطن هو وقومه ، بعث برسالة إلى الحاكم الفارسي يقول له فيها : لقد استقر الرأي على الإقامة في إقليم من عمان . وأنه لا ينوي إخراج الفرس منها . أما إذاهاجموه ، فإنه لا بد وأن يهزمهم ويطردهم من البلاد .

ورفض الفرس — وهو ما كان متوقعاً — ذلك التهديد من خليط همجي

من العرب القادمين من الصحراء . واستعدوا للحرب ، وانطلقوا من صحار عبر وادي الحزى بقوة كبيرة تضم بعض القبيلة ، واستعد مالك لمواجهة التحدي .

وتقدم الفرس الذين قدر عددهم بثلاثة أو أربعة آلاف نحو سلوت قرب نزوى ، حيث واجههم مالك بن فهم بستة آلاف رجل ، منهم الفان من الفرسان يقودهم ابنه هناة ، وتولى مالك قيادة جيشه فوق حصان أرقط ، مرتديا رداء أحمر اللون ، وشالا أصفر ملفوفاً حول خوزته وصاح بجنوده « تقدموا معي نحو كل هذه القبيلة لنهاجمها » . وهاجموها برماحهم وسيوفهم . فطلب الفرس هدنة . وعادوا إلى صحار . وعاد مالك إلى قباها .

وعندما بلغ نبأ الهزيمة ملك فارس ، استاء وبعث بتعزيزات . وعلم مالك بذلك ، فأرسل رسالة أخرى إلى الفرس يبلغهم أنه سيطردهم من البلاد إذا لم يرحلوا عنها . وعندما رفضوا ذلك زحف عليهم وهزمهم . وكانت هذه هي نهاية الفرس في عمان ، وبعدها بدأ العمانيون فترة من الازدهار وتطوير بلادهم الجديدة ، ودام حكم مالك سبعين عاماً ومات وعمره ١٢٠ عاماً .

ويعتبره العمانيون واليمنيون الذين من أصل أزدى جدتهم الأكبر . ولا يزال يوجد في عمان قرية تسمى منح ، وفلج مهجور ، يعتقد أن مالك هو الذي بناه .

والمعتقد أن عرب عمان ينتمون إلى عائلتين رئيسيتين هما : القحطانيون والعدنانيون . وينتمي الأزد المعروفون باليمنيين إلى عائلة قحطان ، بينما ينتمي النزاريون إلى عائلة عدنان .

وقد استقرت العائلتان في عمان : ثم اكتسب كل منها ألقاباً أخرى ، وأصبح القحطانيون يعرفون باسم بني رواحة ، والعدنانيون باسم بني ريام .

ومن المثير للاهتمام أنه توجد في إحدى المدن العمانية القديمة ، وهي أزمكي ، منطقتان تسمى إحداهما اليمن ، والأخرى نزار .

وقد دخل العدنانيون عمان في تاريخ متأخر أقاديين من الجزيرة العربية ، واستوطنوا الجزء الشمالي من البلاد .

وعمان من أول البلاد التي اعتنقت الإسلام في حياة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وكان ذلك في عام ٦٣٠ ميلادية عندما وصل عمرو بن العاص إلى عمان كبعوث عن النبي محمد يطلب دخول العمانيين في الإسلام . وكان الفرس في ذلك الوقت قد استعادوا السيطرة على المناطق الساحلية من عمان وحتى البحرين والمنطقة الساحلية الممتدة إلى اليمن . وأصبحت صحار العاصمة لهم مرة أخرى . وظلت السيطرة للأزد في داخل عمان .

وحول عام ٦٨٠ هـ تعرضت عمان لغزوات جديدة من العراق وفارس تحت قيادة الحجاج ، الحاكم المسلم للعراق ، وظلت عمان سبعين عاماً أو نحو ذلك تحكم من الناحية النظرية على الأقل بحاكم يعينه حاكم العراق . ومع نهاية تلك الفترة تحالف أحد العمانيين - وكان قديماً حاكماً ثم عزل - مع الطائفة الأباضية واستطاع أن يفرض سيطرته تدريجياً على البلاد . وفي حوالي عام ٧٥٠ ميلادية انتخب الخليلي بن مسعود أول إمام في عمان .

والأباضية ، هي طائفة مسلمة تؤمن بالديموقراطية الكاملة في اختيار الخليفة - على أساس أهليته ونزاهته - والعمانيون - كإباضيين - لا يعتبرون أنفسهم خوارج بل يمانهم بالديموقراطية في اختيار قائدهم . وهم يعتبرون أنفسهم مسلمين حقيقيين ، وقائدهم يعرف بالإمام « وهو ما يعنى ببساطة الشخص القدوة . ويمنحه شعبه ولاءه وطاعته بحيث يقودهم ويرشدهم ويدافع عنهم ويحميهم من أعدائهم » ، ويلتزم بالقرآن وتعاليم الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكل مسنده القوانين تعتبر مقدسة ، ولا يمكن بالتالى تغييرها
أو معارضتها .

ويتم اختيار الإمام - مبدئياً - بواسطة مجموعة صغيرة من العلماء كبار
السن ، ولا بد ، بعد ذلك ، من موافقة الشعب ، على انتخاب الإمام من
خلال التصويت . ولا يمكن انتخاب الإمام المرشح ، بدون الموافقة
العامة عليه .

وقد أصبحت الإباضية عقيدة تجمع حولها العمانيون في كفاحهم من
أجل الاستقلال .

ومنذ انتخاب أول إمام ، تعرضت عمان لأكثر من عشر غزوات
متتالية على مدى مائتى عام . وكان هدف كل هجوم هو تدمير المجتمع العماني ،
ومن المرجح على ما يبدو أن دافع الغزاة كان بسبب تجاهل العمانيين
للالتهام بدفع الزكاة للخليفة . ولقد فشل أكل غزو أمام المقاومة العنيفة
من العمانيين دفاعاً عن عقيدتهم وأسلوب حياتهم ، بالإضافة إلى وعورة
البلاد ومساحتها الشاسعة ، وصعوبة المواصلات بها .

ومنذ انتخاب أول إمام فى عام ٥٧٥٠ هـ ، جرى الغزو على انتخاب
الأئمة . وكان آخر إمام تم انتخابه عام ١٩٥٤ ، وهو الإمام غالب بن على
الهنائى ، الذى ظل فى السلطة حتى عام ١٩٥٦ ، عندما فر إلى السعودية
وعاش فى المنفى بعد هزيمته

وكان الأئمة - الذين أعقبوا الجلندى بن مسعود - من قبيلته النبهاني .
وفى عام ١٦٢٤ انتخب ناصر بن مرشد بن سلطان اليعربى اماماً ،
وكان ينتمى الى قبيلة أخرى . وتعتبر قبيلة اليعاربة أقدم القبائل اليمانية جميعاً
فى عمان ، وهى كما يلى فى تسلسلها : اليعربى ، العربى ، الحميرى ، الأزدي ،
اليماني . وكان الإمام ناصر شخصاً غير عادى . وقد تم انتخابه فى الرستاق ،
وقاد عملية انتخابه شيخ عالم ورع هو الخمينى بن سعيد الشقضى ، الذى

أدار مداولات الشعب عندما دب بينهم انقسام شديد حول أمور كثيرة .

وعندما توفي الإمام ناصر عام ١٦٤٩م خلفه ابن عمه سلطان بن سيف اليعربي الذي طرد البرتغاليين من مسقط في يناير ١٦٥٠ ، وطاردهم حتى الهند والساحل الشرقي لإفريقية وقد بنى أسطولا بحرياً قوياً من السفن التي استولى عليها من البرتغاليين ، وبذلك نجح في أن يجعل من عمان بسرعة أقوى دولة بحرية في شمال المحيط الهندي ، وازدهرت تجارة العمانيين بصورة لم يسبق لها مثيل .

وبوفاة سلطان بن سيف عام ١٦٧٩ ، أصبح ابنه بلعرب إماماً ، وبذلك وجد مبدأ الحكم الوراثي للإمامة . ولم يكن حكم بلعرب موفقاً ، ومتألقاً مثل حكم أبيه . فلقد كان على نزاع مستمر مع أخيه سيف بن سلطان ، وتوفي في النهاية في قلعة الجميلة في جبرين عام ١٦٦٢م .

وسعى سيف بن سلطان اليعربي الذي خلف أخاه ، نحو تطوير التجارة وقد شجع شعبه على ذلك وكانت عمان قوية في عهده ، وازدهرت فيها التجارة والزراعة ، وتوفي في الرستاق في أكتوبر ١٧١١ .

وفي إطار مبدأ وراثة الإمامة ، فإن الذي خلف سيفاً هو ابنه سلطان بن سيف . وكان الإمام سلطان متواضعاً ، وأنفق كثيراً من المال الذي ورثه عن والده ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه اقترض قدرأ كبيراً من المال . وبني قلعة جميلة في الحزم قرب الرستاق . ودرب بحريته على أن تكون هجومية بحيث أصبحت مهابة في أنحاء الخليج والمحيط الهندي . وقد أدى ذلك إلى أن تكون لعمان اتصالات بسفن شركة الهند الشرقية ، وقوة بريطانيا فيما وراءها ، وهو ما كان له تأثيرات بعيدة المدى على تاريخ عمان .

وتوفي الإمام سلطان عام ١٧١٨ ، وكان عمر ابنه سيف بن سلطان الثاني إثني عشر عاماً . ورغم اتباع نظام مبدأ الوراثة ، فإنه كان أنسب

رجل للإمامة ، إلا أنه لم يكن مقبولا لحدائثة سنه ، وللحرب الأهلية التي وقعت بعد ذلك . وقد انقسم الجانيان المتنافسان في الحرب الأهلية إلى فريقين ، يمانى ونزارى . وتولى قيادة القبائل اليمانية خلف بن مبروك ، وهو من قبيلة بنى هناة ، ولذلك عرفوا بالهناثيين . وكان على رأس النزاريين محمد بن ناصر وهو من بنى غافر ولذلك عرفوا بالغافرية . وقد قتل القائدان في معركة صحار عام ١٧٢٤ .

وفي عام ١٧٣٧ تعرضت البلاد لغزو فارسى وقد زاد من تعقيد موقف الحرب الأهلية المضطرب ، ولكن نهاية هذا الصراع المدمر بدأت تلوح في الأفق . فقد هزم الفرس فى صحار على يد أحمد بن سعيد بن محمد البوسعيد الذى انتخب بعد ذلك بوقت قصير إماما ، وذلك فى عام ١٧٤٤ . وأصبحت أسرة البوسعيد - التى تعرف الآن بآل سعيد . تملك توجيه دفة الأمور فى عمان طوال الـ ٢٣٢ عاماً الماضية ، وينتمى إليها جلالة السلطان قابوس بن سعيد آل سعيد .

ورغم أن كثيراً من إنجازات أسرة اليعاربة قد دمرت أثناء الحرب الأهلية ، إلا أن الإمام أحمد استمر على سياسة تلك الأسرة التى دامت ١٢٠ عاماً . فقد شجع التجارة وازدهرت البلاد من جديد ، واستمر حكمه ٣٩ عاماً ومات عام ١٧٨٣ .

وخلفه ابنه الثانى سعيد الذى وصل إلى الحكم بالانتخاب . ولم يكن ابنه الأكبر هلال أهلاً للحكم لأنه كان ضريباً ، أما ابنه الصغيران سيف وسلطان فقد قضا على أى مطلب لهما . بنمردهما ضد أبيهما . ولم يبق سعيد تحديداً كامام ، ولكن بالنسبة لوضعه كحاكم دنيوى ، فإن ابنه أحمد قد انتزع منه السيطرة السياسية ، ونقل العاصمة من الرستاق إلى مسقط ، حيث تولى الحكم ، وهو لا يحمل لقب « السيد » . وظل والده إماماً فى الرستاق ، لا يتمتع بأية سلطة حتى وفاته فى وقت فيما بين ١٨١١ و ١٨٢١ .

وكان نقل العاصمة من الرستاق إلى مسقط وتولى أحمد السلطة بلقب السيد بداية لاستخدام تعبير « مسقط وعمان ، بدلا من عمان » كدولة واحدة ، واستمر هذا الوضع حتى يوليو ١٩٧٠ عندما تولى جلالة السلطان قابوس بن سعيد السلطة ، فأصدر مرسوماً بتغيير اسم البلاد من « سلطنة مسقط وعمان » ، إلى « سلطنة عمان ».

وحكم السيد أحمد بن سعيد في مسقط ، من ١٧٨٤ إلى ١٧٩٢ وتوفي مصاباً بالجذري في مسقط . وقد حل محله عمه السيد سلطان بن أحمد . خامس أبناء الإمام أحمد — وأحد الأبناء الذين تمردوا على أبيهم عام ١٧٨١ ، وأبرم السيد سلطان بن أحمد اتفاقاً عائلياً مع إخوته في بركا عام ١٧٩٣ . وأدى هذا الاتفاق إلى مزيد من انقسام عمان ، حيث استمر سعيد في الرستاق كإمام ، وحكم قيس (الابن الثالث للإمام أحمد) في صحار ، وبقي سلطان في مسقط . وبهذا الاتفاق قسمت سلطة الحكم ، وتعطلت الإمامة عن مزاوله السلطة . وقد شغل سلطان — أنشط أعضاء العائلة المالكة — بتطوير القوة البحرية والسفن التجارية . وتسبب هذا في استياء شعب الداخل . وضم السيد سلطان إليه إقليم جوادر على ساحل مكران في بلوخيستان ، وظل هذا الإقليم جزءاً من عمان حتى عام ١٩٥٨ حين تنازل عنه السلطان سعيد بن تيمور

وخلال الفترة من ١٨٠٠ إلى ١٨٠٣ تعرضت البلاد لغزو الوهابيين القادمين مما يعرف الآن بالمملكة العربية السعودية .

وقد نزلوا على ساحل الباطنة وحاصروا السيد قيس بن أحمد في صحار ، وتعاقت النكسات على العمانيين ، وبدأ الموقف شديد الخطورة حتى تم بالمصادفة اغتيال القائد الوهابي مما دفع أتباعه إلى الانسحاب . وفي عام ١٧٩٨ ، أبرمت معاهدة مع شركة الهند الشرقية ، وهي

الشركة الإنجليزية التي استهدفت إبعاد الفرنسيين عن الهند . وأدرك السيد سلطان - بحكم كونه تاجراً ، له خبرته ومكانته - قوة الإنجليز وزياد سيطرتهم على تجارة الهند ، وأنه لا يملك القوة الكافية لمواجهةهم ، فوقع معاهدة معهم . وتوفي عام ١٨٠٤ .

وفور وفاته بدأت المكائد . وقد ظل عم سلطان . بدر بن سيف . حاكماً أسمياً حتى وفاته عام ١٨٠٦ . ومع ذلك استمر القتال والانقسامات الداخلية حتى اغتيال بدر بيد سعيد بن سلطان عام ١٨٠٦ . وفي تلك الفترة أغرى الضعف الداخلي الوهابيين على القيام بغزو ثان ، انتهى بالنجاح ، وأسفر عن سيطرتهم على مساحة كبيرة من داخل عمان .

وكان عمر السيد سعيد بن سلطان ، الذي عرف باسم سعيد الكبير ، سبعة عشر عاماً ، وعندما تولى الحكم ، كان شاباً مرموقاً ، وقد خاض حروباً ، لإثبات كفايته وأهليته للحكم بإقصاء الوهابيين ، ولكن لم يتحقق له النجاح عليهم نهائياً إلا عام ١٨٢٠ ، بمساعدة البريطانيين والفرس .

وخلال تلك الفترة توفي الإمام سعيد بن أحمد ، وبعد وفاته لم تبدل أية محاولة لانتخاب إمام آخر .

وبذلك احتفظ السيد سعيد ، كما كان ، بالتقاليد التجارية لعائلته ، وعمل بنشاط لتوسيع تجارة عمان ونفوذها .

وفي عام ١٨٢٩ احتل ظفار - المنطقة الجنوبية من عمان - .

وفي عام ١٨٣٢ وجه نشاطه الممتلكاته في شرقي إفريقيا ، وأمضى معظم الفترة التالية من حياته في زنجبار والساحل الشرقي لإفريقية .

وكان من نتيجة ذلك حدوث إزدهار في عمان ، بيد أن اتهامه بممتلكاته الإفريقية ، وغيباه الطويل الدائم عن عمان بعد عام ١٨٣٢ قد أغرى آخرين على السعي من أجل السلطة في عمان .

وبما ساعد على ذلك علاقات السيد سعيد بالبريطانيين ، فقد كان مقتنعا بأنه لن يستطيع مواجهتهم ، وأنه إذا تعامل معهم كأصدقاء فإنه سوف يكون في وضع أكثر أمنا ، وقد طلبه منه البريطانيون منع تجارة الرقيق التي يقوم بها رعاياه في ممتلكاته الإفريقية . وفي الأجزاء العربية من ممتلكاته .

ولقد بداله ذلك الطلب من البريطانيين طلبا غريبا ، خاصة وأنه يتعارض مع نظام المجتمع العماني والأسس الاقتصادية التي يقوم عليها .

فلم تكن للرق في الإسلام تلك السمات اللاإنسانية التي اقترنت بها في المجتمعات الأوروبية . فالرقيق في عمان يعدون من أفراد الأسرة وخدمها ، ويؤدون الأعمال المنزلية ، كما أن المجتمع يعتمد عليهم .

وحيث أن السيد سعيد لم يكن في وضع يسمح له بمناقشة البريطانيين في هذه الأمور فقد وافق على طلبهم ، وتم في عام ١٨٢٢ توقيع أول معاهدة مع البريطانيين لتحريم الرق في عمان . وكانت تلك المعاهدة مقدمة لمعاهدات أخرى وقعت عام ١٨٣٩ و عام ١٨٤٥ غير أن هذه المعاهدات تركت آثارا سلبية على الأزدهار التجاري في عمان ، وسببت شعورا بالمرارة ، ومن ناحية أخرى أصيبت الحركة التجارية في عمان بضربات شديدة ، لأن السفن الأوروبية الضخمة والسريعة وضعت السفن الشراعية العربية في وضع غير قادر على المنافسة ، ثم زاد الطين بلة افتتاح قناة السويس الذي قضى على التجارة العمانية . وأدى ذلك كله إلى تقليص إيرادات عمان بشكل حاد . أمضى السيد سعيد السنوات الأخيرة من حياته في زنجبار ، وإن كان قد قام بزيارات عديدة لعمان كانت أكثرها ، لتسوية خلافات نشبت في

غيابه . وضعف نفوذه على شعبه في عمان بسبب تلك الخلافات والمشاكل التي ، تفاقم في السنوات الأخيرة بسبب التهديد الوهابي لعمان .

وكانت آخر زيارة للسيد سعيد لعُمان عام ١٨٥٤ ، حيث تلقى رسالة بأن الفرس قد قاموا بهجمات متكررة على بندر عباس ، التي كانت إقليماً فارسياً صغيراً ، وضمه السيد سعيد لعُمان ، وتحل بندر عباس موقعا استراتيجيا عند مدخل الخليج ، وكان السيد سعيد يرفض إعادة الإقليم إلى الفرس رغم أنه كان ينفق عليه أكثر مما كان يدره . ولذلك فإنه بعد أن أتم كافة استعداداته وعين ابنه خالداً ممثلاً عنه في زنجبار ، غادر زنجبار ، يصحبه نجله برغش في ١٨ أبريل ١٨٥٤ في السفينة « فيكتوريا » وفي عُمان كان يمثله في غيابه ابنه ثويني .

ولم يعيش خالد طويلاً . وتوفي بعد إصابته بمرض استعصى على الشفاء في نوفمبر ١٨٥٤ وعمره ٣٥ عاماً ، بعد ثمانية شهور من رحيل أبيه إلى عُمان . وأصبح ابنه ماجد ممثلاً لوالده .

ومكث السيد سعيد في عُمان حتى عام ١٨٥٦ . وغادر مسقط في ١٥ سبتمبر ١٨٥٦ ، وبعد يومين من الانبحار من مسقط في ١٨ سبتمبر أصيب بألم شديد في ساقه نتيجة جرح قديم ، كما أصيب بدونسطار بإحادة وتوفي بعد ذلك بستة أيام على ظهر سفينه .

ومع ذلك لم يصل نبأ وفاته إلى عُمان أو زنجبار . وكان أهل زنجبار ينتظرون عودته بشوق ، بينما في عُمان كانوا ينتظرون معرفة وصوله إلى زنجبار ، وعند وفاته في ١٩ أكتوبر ١٨٥٦ ، تولى ابنه برغش أمر السفينة التي كانت تحمل جثمانه ، ولما اقتربت من زنجبار أمر السيد برغش بأن ترسو السفينة في غير المكان المعتاد ، وأخذ جثمان أبيه إلى الشاطئ ودفنه سراً .

في نفس الوقت كان السيد ماجد يراقب البحر في انتظار وصول سفينة أبيه بعد أن علم باقترابها . ولكن سوء الأحوال الجوية وهياج البحر جعلت قارب الصغير لا يستطيع تحمل الأمواج ، ففقد السيطرة على دفة قاربه ولم يستطع الوصول إلى السفينة .

ووضع السيد برغش خطة الاستيلاء على الحكم . فما أن انتهى من مراسم دفن والده حتى قام بمحاصرة القصر الذي كان يقيم فيه أخوه السيد ماجد ، غير أن الخطة فشلت لغياب ماجد في ذلك الوقت ، فقد كان يستقل السفينة في البحر ، وبالتالي ثم تنصيب السيد ماجد حاكماً على زنجبار في نفس اليوم ، وكان يبلغ من العمر إذ ذاك ٢٢ عاماً .

أما السيد ثويني فقد تولى حكم عمان بعد وفاة والده باعتباره أكبر أنجال السيد سعيد . ولكن سرعان ما نشب نزاع بين السيد ثويني والسيد ماجد عندما طالب السيد ثويني بفرض سلطته على زنجبار أيضاً .

وكنتيجة للمحاولات التي قام بها السيد ثويني لفرض سلطته على زنجبار بالقوة ، تأزم الموقف ، فأحيل النزاع إلى اللورد البريطاني كاتنج! الذي كان يشغل منصب الحاكم العام في الهند . فأصدر كاتنج حكماً بوجوب تقسيم المملكة بين الأخوين . غير أن هذا القرار تمخض عند خسائر اقتصادية بالغة لعمان ، ونظراً لأن اللورد كاتنج قد أدرك الغبن الذي تعرضت له عمان فقد أصدر في سنة ١٨٦٠ قراراً بأن يلتزم السيد ماجد بدفع تعويضات سنوية لحكومة السيد ثويني في حدود ٤٠ ألف ريال نمساوي . غير أن حكومة زنجبار لم تلتزم بهذا القرار ، مما اضطر حكومة الهند إلى أن تتكفل بدفع المبلغ سنوياً ابتداء من عام ١٨٧١ حتى عام ١٩٤٧ عندما أصبحت هذه الأمور من اختصاص وزارة الخارجية في لندن ، والتي استمرت في دفعه حتى عام ١٩٦٧ عندما بدأت عمان تصدر البترول . وكانت قيمة هذا الدعم تقدر بمعدلات مختلفة من وقت لآخر .

ففي عام ١٨٧٣ قدرت بمبلغ ٨٦٤٠٠ روبية . وفي عام ١٩٦٧ وصل المبلغ إلى ٦٥٠٠ استرليني .

وقد أدت وفاة السيد سعيد ثم تقسيم مملكته بين ابنيه ، إلى تدهور سريع في أوضاع البلاد . ووجد خلفاء ماجد أنفسهم مقيدى الحركة أمام

زيادة الاهتمام الأوربي بشرقي إفريقيا والاعتداء على أراضيها ، خاصة من ألمانيا إلى أن تم في عام ١٨٩٠ وضع زنجبار مع أراض أخرى في إفريقيا تحت سيطرة بريطانيا باسم الحماية .

وفي عمان سرعان ما تفتت السلطة القوية للسيد سعيد تحت حكم السيد ثويني وخلفائه المباشرين . وكان الاستثناء هو فترة الحكم القصيرة للإمام عزان بن قيس من ١٨٦٨ إلى يناير ١٨٧١ . وأدرك الإمام عزان ، أن عمان لا يمكن أن تكون دولة قوية مستقلة ما لم يتم استعادة استعادة سلطة الحكومة المركزية على قبائل الداخل ، وأن يعاد دفع أموال الزكاة كمصدر تقليدي للدخلى الحكومى ، فتحتل محل العوائد الجمركية الضئيلة .

غير أن السيد عزان لم يحقق نجاحاً في توحيد البلاد ، لأن الحكومة البريطانية لم تدرس هذا الموضوع ولم تدرس دوافعه ، ولم تعترف به أيضاً حكومة الهند ، وقد أوقف الدعم المالى الذى كان قد تقرر بموجب قرار كاتنج .

ولابتداء من عام ١٨٧١ فإن عمان غرقت أكثر وأكثر في بحر من الكساد الاقتصادى بسبب اضطرابات كثيرة نشبت في الداخل ، واستمر السلاطين في مسقط يواجهون تمرد القبائل وتهديدهم ، وظلت هذه الاضطرابات والخلافات بين الطرفين حتى عام ١٩٢٠ عندما وقع اتفاق في السيب بين عيسى بن صالح ممثلاً للقبائل وبين حكومة مسقط ، وعاد السلام والاستقرار إلى البلاد . وكان السلطان وقتئذ هو السيد تيمور بن فيصل ، جد السلطان قابوس .

ومن بين مواد هذا الاتفاق المشار إليه ، أن يمتنع رجال القبائل المتمردة عن مهاجمة المدن الساحلية التى يتمتعون فيها بحرية التنقل والأمن ، وأن يسمح لسكان المدن الساحلية بالذهاب إلى المناطق الداخلية في عمان

لممارسة أعمالهم التجارية ، وقد تعهدت حكومة السلطان بعدم التدخل في شئون القبائل .

ويقضى الاتفاق أيضاً بأن تحل جميع الخلافات والدعوى ضد الشعب العماني من جانب التجار وغيرهم طبقاً للشريعة الإسلامية .

وفي عام ١٩٣٢ تنحى السيد تيمور ، وخلفه ابنه السيد سعيد بن تيمور ، وقد كان من الإنجازات الهامة التي قام بها السيد سعيد نصفيته الديون التي ورثها عن أبيه ، ورفضه أن يجلب على البلاد قروضاً أخرى ، وهو قرار له أهميته البالغة ، فقد كان أبوه وجده وجد أبيه قد تركوا الأمور تنزلق إلى مهوى سحق ، ولم يثلق السلطان سعيد نفسه أى مساعدات من المستشارين الأجانب .

وقد عاش السيد سعيد بن تيمور في عزلة عن شعبه ، في صلالة ، من عام ١٩٥٨ إلى ٢٣ يولييه ١٩٧٠ حين خلفه ابنه السلطان قابوس . وتوفي السيد سعيد بعد ذلك بعام في دوشستر هاوس بلندن .

وإن السلاطين الذين تتابعوا في حكم عمان بعد وفاة السيد سعيد الكبير هم كما يلي :

- السيد ثويني بن سعيد من عام ١٨٥٦ الى عام ١٨٦٦
- السيد سالم بن ثويني من عام ١٨٦٦ الى عام ١٨٦٨
- السيد (الإمام) عزان بن قيس من عام ١٨٦٨ الى عام ١٨٧١
- السيد تركي بن سعيد من عام ١٨٧١ الى عام ١٨٨٨
- السيد فيصل بن تركي من عام ١٨٨٨ الى عام ١٩١٣
- السيد تيمور بن فيصل من عام ١٩١٣ الى عام ١٩٣٢
- السيد سعيد بن تيمور من عام ١٩٣٢ الى عام ١٩٧٠

ومنذ عام ١٩٧٠ يتولى جلالة السلطان قابوس بن سعيد الحكم وإدارة

شئون البلاد : وفي زنجبار خلف السيد ماجد أباه السيد سعيد بعد وفاته ، واستطاع السيد ماجد الوصول إلى حكم الساحل الشرقي لإفريقية بطريقة سلمية ، بسبب شعبيته لدى معظم السكان العرب في زنجبار .

ولم يكن أخوه السيد ثويني الذي كان يحكم في مسقط راضيا عن هذا الوضع ، وقد سارع إلى المطالبة بحكم كل ممتلكات أبيه ، وأخذ يستعد للإبحار إلى زنجبار مستهدفا فرض نفسه بالقوة على ما يعتبره حقا من حقوقه ، ولكن الحكومة البريطانية حالت بينه وبين تنفيذ خططه ، وكونت لجنة للنظر في خلافات الإخوين المتنازعين ، وبينما كانت اللجنة تباشر مهمتها حاول ثويني إثارة المتاعب ضد أخيه السيد ماجد بين بعض سكان زنجبار ، وساعده في ذلك أخوه الأصغر السيد برغش .

ففي عام ١٨٥٩ دبر السيد برغش مؤامرة للإطاحة السيد ماجد ، وبدأ في لحظة ما أن المؤامرة قد نجحت لكن تدخل القنصل البريطاني في زنجبار أدى إلى إحباطها في النهاية - وأبعد السيد برغش إلى بومباي حيث عاش هناك حتى عام ١٨٦١ .

وفي نفس العام أنهت اللجنة أعمالها ، وقررت تقسيم الحكم بين السيد ثويني وبين السيد ماجد ، وتم بذلك فصل شرقي أفريقية عن عمان ابتداء من عام ١٨٦١ .

وتوفي السيد ماجد عام ١٨٧٠ وعمره ٣٧ عاما وخلفه أخوه السيد برغش .

وكان السيد برغش شخصية مرموقة ، ويشبه والده السيد سعيد في كثير من صفاته ، وقد كشفت طريقة تأمره على أخيه السيد ماجد عن مدى طموحه وجراته ، كما كان أكثر حيوية ونشاطا من أخيه السيد ماجد ، وقد أتهم بولعه بالحياة المرفهة ، وفي عهده جرى استخدام لقب (م ٣ - عمان وشرقي أفريقية)

سلطان لأول مرة في الاستعمال خاصة بين الأوربيين المقيمين في زنجبار ، وأقام لنفسه قصرًا جميلًا ، مازال قائمًا — ويعرف باسم بيت العجائب — كما مد خط أنابيب للمياه من نبع شيم شيم إلى المدينة لتوفير المياه النظيفة للسكان ، وعندما اجتاحت إعصار رهيب زنجبار ودمر كل مزارع القرنفل ، ظهرت قوة شخصية السيد برغش بالطريقة التي عمل بها على الفور ، فعادت زراعة القرنفل إلى حالتها المزدهرة .

وفي عهده أصبح شرقي أفريقية أكثر اتصالًا بالعالم الخارجي عن طريق السفن التجارية وخطوط المواصلات السلكية ، وفي عام ١٨٦٩ فتحت قناة السويس ، وبعدها بفترة قصيرة في عام ١٨٧٢ بدأت شركة الملاحة البريطانية الهندية خدمة بريدية شهرية بين عدن وزنجبار ، وفي عام ١٨٧٩ أتمت شركة التلغراف الشرقية مد خط تلغراف بحري تحت الماء من عدن إلى زنجبار ، مما جعل الساحل على اتصال وثيق بالعالم الخارجي .

وفي عام ١٨٧٥ قام السيد برغش بزيارة رسمية لانجلترا حيث استقبلته الملكة فيكتوريا ، وأمير وأميرة ويلز . كما زار باريس وبرلين وهرن في طريق عودته إلى شرقي أفريقية .

ويعتبر عهد السيد برغش فترة لا تنسى لأنها شهدت بداية الاهتمام الأوربي النشط بأفريقية ، والقضاء التدريجي على تجارة الرقيق في شرقي أفريقية .

وفي عام ١٨٧٣ أرسلت الحكومة البريطانية السير بارتل فيرير إلى زنجبار لإقناع السيد برغش بالموافقة على معاهدة أكثر فعالية في الحد من تجارة الرقيق من تلك التي وقعها والده . ووجد السيد برغش نفسه في موقف بالغ الحرج ، وشكا للسيد بارتل فيرير من أنه يجد بريطانيا — من جانب — تصر على القضاء على تجارة الرقيق — ويوجد من جانب آخر — دعاياه العرب يرفضون مطالب الحكومة البريطانية لأنها تتعارض مع مصالحهم .

وكان الإقصار الذى دمر مزارع القرنفل وجلب الخراب على كثير من أصحاب المزارع العرب قد جعل توقيع معاهدة جديدة أمراً عسيراً على السيد برغش ، وأبدى السيد برغش اعتراضه على هذه المعاهدة ، بأنه إذا استجاب للمطالب البريطانية فإن حياته ستعرض للخطر بسبب السخط الشديد الذى ستحدثه مثل هذه الخطوة بين رعاياه العرب .

وكلف القنصل البريطانى العام فى زنجبار الدكتور كيرك بمفاوضة السيد برغش ، وأمام رفض السيد برغش توقيع المعاهدة ألح الدكتور كيرك إلى أن بريطانيا قد تجد نفسها مضطرة إلى استخدام القوة فى حالة رفض توقيع المعاهدة ، وفى النهاية وقعت المعاهدة فى عام ١٨٧٢ ، وتم فى نفس اليوم إغلاق سوق العبيد فى زنجبار .

وتوفى السيد برغش عام ١٨٨٨ ، وخلفه أخوه السيد خليفة بن سعيد ، ولم يستمر عهد السيد خليفة سوى عامين .

وفى عام ١٨٩٠ تولى حكم زنجبار على بن سعيد آخر أبناء السيد سعيد الكبير . وكان أبرز حدث فى عهده هو إعلان جزيرتى زنجبار وبيلما محميتين بريطانيتين ، وذلك فى يوم ١١ نوفمبر سنة ١٨٩٠ ومنذ ذلك التاريخ وحتى ١٠ ديسمبر ١٩٦٣ ، وضعت الإدارات والحكومة فى زنجبار فى أيدي مسئولين بريطانيين ، تحت حكم السلطان الذى أصبحت سلطته محدودة للغاية ، فكان الحاكم الإسمى .

وبهذا انتهى الحكم الطموح للسيد سعيد الكبير فى بناء إمبراطورية واسعة فى شرقى أفريقية له ولخلفائه من بعده .

ورغم أن اللوم يمكن أن يقع على عدم قدرة خلفاء السيد سعيد على إقامة حكم راسخ وفعال فى هذه المناطق ، غير أن المنافسة الأوروبية على الاستحواز على مناطق فى أفريقية تتحمل أيضاً جزءاً من المسؤولية . فقد كان لا بد من قوة أوروبية تتقدم لتأخذ فى يدها السلطة فى زنجبار .

وعهد إلى مسئول بريطاني هو السير اويد ماثيوز بمهمة إعادة تنظيم الحكومة تحت الحماية البريطانية . ومنح لقب الوزير الأول للسلطان . وكان سير اويز ماثيوز قد جاء لأول مرة إلى شرقي أفريقية كليفنتانت في البحرية البريطانية ، ولعب دوراً فعالاً في القضاء على تجارة الرقيق . وبعد ذلك بعاهين أوفدته البحرية البريطانية لينضم إلى حماية السيد برغش في تدريب قوة عسكرية صغيرة من ٥٠٠ رجل . وقد حقق في منصبه الجليلد نجاحاً كبيراً ، وأعجب السيد برغش بما حققه .

وبعد تقاعد ماثيوز من عمله في البحرية البريطانية ، عين قائداً لجيش السلطان عام ١٨٨١ برتبة بريجادير جنرال . ولذلك فإنه كان على دراية واسعة بالعرب وتقاليدهم وأساليب حياتهم ، فضلاً عن ارتباطه بشئون القصر ، إثر تعيينه وزيراً أول للسيد على عام ١٨٩١ .

وتوفي السيد على بن سعيد عام ١٨٩٣ ، وخلفه السيد محمد بن ثويني أحد أحفاد السيد سعيد . وشهدت زنجبار اضطرابات خلال توليه الحكم ، حيث قام السيد خالد أكبر الأبناء الباقين للسيد برغش ، بمحاولة بائسة للاستيلاء على الحكم بالقوة . ولم ينجح خالد في مساعيه خلال الفترة القصيرة من حكم السيد محمد بن ثويني ، لكنه قام بعد وفاته عام ١٨٩٦ بأكثر من محاولة لاغتصاب الحكم بل أنه حتى قبل أن يوارى جسد السيد محمد التراب . اقتحم السيد خالد مع فئات من العرب المسلمين ، القصر وأعلن نفسه سلطاناً .

وقد حدث ذلك في ٢٥ أغسطس عام ١٨٩٦ ، وفي اليوم التالي قام الممثل البريطاني في زنجبار بجهود يائسة لإقناع السيد خالد بالتخلي عن السلطة ، لصالح السيد حمود بن محمد . لكنه رفض وبقي في القصر . ولذلك صدرت الأوامر للأسطول البريطاني بقيادة الأدميرال راوسون ، بإقامة سياج من الحراسة على قصر القنصل البريطاني العام ، والجمارك ، والحي الأوربي .

وفي صباح ٢٧ أغسطس أرسل الأدميرال إنذاراً للسيد الخالد بأن يستسلم خلال ساعتين وإلا فإنه سيضطر إلى قصف القصر. ولم يرد السيد خالد، ولذلك بدأت ثلاث سفن حربية في قصف القصر في الساعة التاسعة صباحاً - وفي خلال نصف ساعة كان القصر قد تحول إلى شعلة من النيران، وأصبح الجزء الأوسط منه أنقاضاً، وسقط خمسمائة من أنصار السيد خالد قتلى أو جرحى في ميدان القصر.

وبعد أن رأى خالد كل هذا هرب من القصر المحطم، واتخذ طريقه إلى القنصلية الألمانية، ومن هناك توجه سراً إلى دار السلام، حيث سمحت له الإدارة الألمانية بالإقامة هناك.

وقد بقي هناك إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى فانضم إلى الألمان ضد البريطانيين، ووقع في أسر القوات البريطانية عام ١٩١٧ فنفته إلى جزيرة سانت هيلانة، ثم نقلته في عام ١٩٢١ إلى سيشل.

وفي مقابل تعهداته بالتخلي عن المطالبة بالسلطة سمحت له السلطات البريطانية عام ١٩٢٥ بالعودة إلى شرق إفريقيا، والإقامة في ممباسا، حيث أمضى هناك بقية حياته، ومات عام ١٩٢٧.

وكان السيد حمود بن محمد قد تولى الحكم في زنجبار عام ١٨٩٦، وتمت مراسم تنصيبه في جو سلمى، وكان يقال عنه، إنه موال للبريطانيين تصرفاته، وقد بذل جهوداً كبيرة لتشجيع رعائيه على مجاراة البريطانيين في سلوكهم وفي طرق حياتهم، وأوفد هو نفسه ابنه السيد علي بن حمود للدراسة والتعلم في المدرسة الإنجليزية في هارو.

وقد توفي السير لويد ماثيوز في عهده، وكانت وفاته في ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٠١، واعتبرت وفاته صدمة لكل أهالي زنجبار وبیمبا، نظراً لما شهدته الجزيرتان في عهده من رخاء، ولارتباطه الطويل بهذه البلاد حتى أصبح وكأنه جزء من صميم حياتها،

وقد أمضى السيد لويد مايتوز في شرق إفريقيا مدة ستة وعشرين عاماً
لم يزر فيها وطنه سوى مرتين اثنتين .

وتوفي السيد حمود في ١٨ يولييه عام ١٩٠٢ ، وخلفه ابنه السيد علي
ابن حمود ، وكان لا يزال صغيراً ، لا يستطيع تولى مسئوليات الحكم قبل
عام ١٩٠٥ رغم إعلانه سلطاناً ، فقام مستر روجرز الوزير الأول بمهام
الوصى على السلطان الصغير خلال الفترة من ١٩٠٢ إلى ١٩٠٥ .

وقد غرست إقامة السيد علي في إنجلترا للدراسة في نفسه حب الأسفار ،
فاعتاد بعد أن أصبح سلطاناً على أن يمضي فترة من كل عام في ربوع أوروبا ،
وكن أسلوب حياته زنجبار متشبيهاً مع الأساليب الأوروبية . وقد غادر
زنجبار عام ١٩١١ لحضور حفل تتويج الملك جورج الخامس ، وأثناء وجوده
في أوروبا قرر التنازل عن العرش . وأمضى بقية حياته في أوروبا . وتوفي
في باريس عام ١٩١٨ .

وقد خلفه في عام ١٩١١ السيد خليفة بن حارب .

وفي عام ١٩١٣ ألغيت مكاتب الوزير الأول والقنصل البريطاني العام
وأستبدلت بها مكاتب جديدة ؟ هي مكتبا المقيم البريطاني ، والسكرتير الأول .
وتم في نفس الوقت تشكيل مجلس الحماية من السلطان نفسه رئيساً ، وعضوية
المقيم البريطاني . ككنايب للرئيس ، وقد شمل أيضاً ثلاثة أعضاء مسئولين
وأربعة أعضاء غير رسميين لتمثيل مختلف الطوائف ،

وفي عام ١٩٢٦ حلت مجالس تشريعية وتنفيذية محل مجالس الحماية
وكان الهدف من المجلس التشريعي - الذي كان يضم عدداً من الأعضاء غير
الرسميين رغم أن غالبية من الرسميين - هو إعطاء أفراد الشعب نصيباً
أكبر من المشاركة في حكم بلادهم بصورة أكبر مما كان معمولاً به .
وكان المجلس التشريعي محولاً بسلطة من القوانين لتوفير عدالة الإدارة .

ورفع الدخول ، وضمان الأمن والنظام ، وحسن إدارة الحماية ،

وشهدت الجزيرتان خلال عهد السيد خليفة أعمالا كثيرة لتطوير مصادرها ، فقد أنشئ ميناء جديد وشقت طرق عديدة حديثة في زنجبار وبيمبا ، وأفادت هذه الطرق منتجى القرنفل ، وسهلت انتشار خدمات التعليم والصحة ، ووصلها إلى القرى النائية في الجزيرتين ، وافتتحت مدرسة لتدريب المدرسين ، ثم بدأ تدريجيا في إنشاء مدارس إقليمية في كل جزء من المحمية ، وفي عام ١٩٢٧ افتتحت مدرسة لتعليم البنات في مدينة زنجبار .

ومن الجدير بالذكر أن تشير إلى أنه كان المفروض أن تخلف السيدة معتوقة بنت حمود أخاها السيد على بن حمود بعد تنازله الأخير عن العرش عام ١٩١١ ، ولكن التقاليد السائدة كانت تمنع تولى امرأة منصب رئيس الدولة ، ومن ثم فقد تولى زوجها السيد خالد السلطة ،

وعندما توفي السيد خليفة عام ١٩٦١ ، نودي بابنه السيد عبد الله بن خليفة سلطانا . ولم يبق السيد عبد الله طويلا في الحكم ، فقد مات عام ١٩٦٢ بعد إصابته بآلام حادة في ساقية انتهت باستئصالها .

وخلفه ابنه الأكبر السيد جمشيد بن عبد الله ، وهو آخر سلاطين زنجبار . عند إعلان استقلالها في ١٠ ديسمبر ١٩٦٣ . وبعد ذلك بشهر واحد ، أى في ١١ يناير ١٩٦٤ وقع انقلاب مدبر من الخارج وأطيح بحكومته . فتوجه السيد جمشيد إلى إنجلترا الاقامة الدائمة فيها .

السلاطين البوسعيديون الذين تعاقبوا على حكم زنجبار بعد وفاة السيد سعيد الكبير ، هم كما يلي :

١٨٥٦ - ١٨٧٠

السيد ماجد بن سعيد

١٨٧٠ - ١٨٨٨

السيد برغش بن سعيد

١٨٨٨ - ١٨٩٠	السيد خليفة بن سعيد
١٨٩٠ - ١٨٩٣	السيد علي بن سعيد
١٨٩٣ - ١٨٩٦	السيد حمد بن ثويني
١٨٩٦ - ١٩٠٢	السيد حمود بن محمد
١٩٠٢ - ١٩١١	السيد علي بن حمود
١٩١١ - ١٩٦١	السيد خليفة بن حارب
١٩٦١ - ١٩٦٢	السيد عبد الله بن خليفة
١٩٦٢ - ١٩٦٣	السيد جمشيد بن عبد الله

العرب في شرق إفريقيا

الداو ، اسم لنوع من السفن الشراعية العربية المعروفة لسكان شرق إفريقيا ، وكان هذا النوع من السفن يقوم برحلات سنوية إلى شواطئ شرق إفريقيا ، تحمل مختلف أنواع السلع العربية مثل البيلح ، وسمك القرش المجفف ، والقهوة والسجاد .

وكانت هذه القوارب تخرج عادة من الجزيرة العربية في شهر يناير ، ثم تهجر عائداً إلى بلادها فيما بين نهاية مارس وأوائل يونيو من كل عام .

وكان مما يسهل هذه الرحلات المنتظمة ذهاباً وأياباً الرياح الموسمية التي تهب من الشمال إلى الشرق في شهر ديسمبر ، وتصل بالعرب إلى الساحل الشرقي من إفريقيا ، ونهب من الجنوب إلى الغرب في مارس فتعود بهم إلى الجزيرة العربية في رحلة تستغرق ألفي ميل في مياه المحيط الهندي . وقد تستفاد بحارة وتجار الجزيرة العربية والبلاد المجاورة لها من الرياح الموسمية طوال ما لا يقل من ٣٠٠٠ عام .

ولعب هؤلاء الملاحون دوراً هاماً في تاريخ الساحل الشرقي لإفريقية . وكانت التوابل والعاج والعميد تجذب أنظار هؤلاء الزوار القادمين من الجزيرة العربية ، الذين تغريهم تلك السلع وتشجعهم على قطع تلك المسافة الطويلة للحصول عليها ، لما كانت تحققه تجارتها من مكاسب كبيرة ، وقد وجد العرب بالإضافة إلى ذلك سوقاً رائجة لسلعهم .

وكانت الصومال المنطقة الرئيسية للتوابل . وكان العاج من المنتجات الإفريقية الهامة ، وقد اهتم الإفريقيون الوطنيون بصيد الفيل ، الذي لم يمكن له استخدامات أخرى ، من أجل أنيابه ، وينقل العاج من داخل إفريقيا إلى الساحل ، فيباع للتجار الزائرين .

وكان الطلب على العاج كبيراً في كثير من دول الشرق ، حيث يستخدم في عمل أثاث المنازل وفي تحف الزيتة .

أما تجارة العبيد فكان نطاقها كبيراً ، وقد عانت إفريقيا بسبب هذا النوع من التجارة ، بأكثر مما عانى أى مكان آخر فى العالم .

ولم يكن العرب العمانيون أول من زار الساحل الشرقى لأفريقية ، فقد كان السومريون الذين عاشوا بالعراق منذ ٧٠٠٠ عام أول شعب يقوم أبناؤه برحلات إلى البحار المفتوحة ، وأول من اخترع السفن الشراعية ، وقد ازدهرت الحضارة السومرية لفترة امتدت ألف عام إلى أن هزمهم شعب آخرهم ، الآشوريون ، الذين لم يدمروا حضارة السومريين ، ولكنهم حافظوا عليها وطوروها .

وقام الآشوريون أيضاً برحلات بحرية ، ومن الممكن أنهم وصلوا إلى الساحل الشرقى لأفريقية حيث تركوا وراءهم مزاولة السحر التى لا تزال موجودة يمارسها بعض سكان الساحل ، وتعتبر مماثلة لتلك الممارسات التى جرت بين الآشوريين والسومريين .

وهناك صلة هامة أخرى بين الآشوريين وشرقى أفريقيا هى استخدام علامة القرن - التى تسمى فى السواحلية « سيوا » ، فى الكتابة والنحت للتدليل على القوة والزعامة . واستخدم الرؤساء القبليون فى شرقى أفريقيا علامة مماثلة كرمز للقوة والسلطة . ويمكن مشاهدة هذه القرون الآن فى بعض المتاحف الأفريقية . وفى جزيرة لاموه بكينيا يوجد أحد قرون العاج الجميلة فى متحفها . وفى متحف زنجبار صورة لقرن كان يستخدم فى لامولا وهو مصنوع من البرونز . ويوجد فى نفس المتحف قرنان من الخشب بين مخلفات الحاكم السابق لزنجانجبار والذى كان يسمى « مويى مكون » .

والهنود أيضاً من أقدم من استفادوا بالرياح فى الموسمية فى التجارة مع شرقى إفريقيا . وبالإضافة إلى رحلاتهم التجارية فقد أقاموا مستوطنات على الساحل ، وربما توغل بعضهم إلى الداخل إلى منطقة البحيرات الكبرى ، إلى

وقد أرسل المصريون بعثاتهم التجارية منذ ٥٠٠٠ عام إلى الصومال التى أسموها بونت ، وكانوا يتاجرون على نطاق واسع فى الذهب ، والعاج ،

وجلد النمر ، الذى استخدمه الملوك والنبلاء المصريون القدامى فى تزيين قصورهم .

كذلك قام اليهود والفينيقيون برحلات مماثلة إلى الساحل الشرقى لإفريقية وقد عاش الفينيقيون على الساحل الشرقى البحر المتوسط ، وكانوا جيرانا لليهود . واستخدموا مينائى صور وصيدا ، وقاموا برحلات تجارية إلى بلاد أفير وسوفاً للحصول على الذهب ، والفضة والعاج والقرود والطاووس ويعتقد أن تلك الرحلات تمت منذ ألف عام قبل الميلاد .

وكان للعرب الذين يؤمّنون الساحل الشرقى لإفريقية دور هام ومستمر ، وأكثر تأثيراً من دور أى فريق آخر فى المنطقة . وقد ظل تاريخ شرقى لإفريقية مرتبطاً بالعرب ارتباطاً وثيقاً طوال ثلاثة آلاف عام .

ولقد كان سكان المناطق الجنوبية من الجزيرة العربية ملاحين يتمتعون بمهارة فائقة ، وتجاراً بارزين مشهود لهم بالخبرة ، وكانت الموانئ الجنوبية للجزيرة العربية فى الماضى مركزاً لازدهار تجارى كبير ، ونعمت دول أخرى صغيرة فى المنطقة بالثراء والقوة .

وقد سهّل الموقع الجغرافى لشبه الجزيرة الاتصال بالدول القريبة فى إفريقية وآسيا . فحدود الجزيرة العربية من ناحية الغرب ، حيث باب المندب ، تلامس إفريقية ، وهى من ناحية الشرق قريبة جداً من فارس ومن الساحل الغربى للهند ، وفى الشمال فإن الجزيرة العربية متصلة وقريبة من الدول المطلة على البحر الأبيض المتوسط .

كما كانت موانئ جنوب شبه الجزيرة مكاناً ملائماً للرحلات بين الشرق والغرب ، ولذلك كانت السلع من موانئ منطقة الخليج والهند تنقل على طول الساحل الجنوبى للجزيرة العربية ، وتوجه إلى البحر الأحمر ، ثم إلى ميناء السويس .

وأكثر من ذلك فقد كان العرب أكثر الشعوب استفادة من الرياح الموسمية ، واحتكروا ملاححة البحر الأحمر فى أبلهم . وكانت السلع القادمة

من الشرق أولاً إلى جنوب الجزيرة العربية إما عن طريق البحر ، أو بالقوافل تمر عبر الصحراء إلى الدولة المطلة على البحر المتوسط . وبذلك أصبح جنوب الجزيرة العربية سوقاً ضخمة ومركزاً تجارياً هاماً يتم فيه تناول منتجات العالمين الشرقي والغربي . وبالإضافة إلى ذلك النوع من التجارة اكتشف العرب من سكان جنوب الجزيرة منذ ثلاثة آلاف عام أنه يمكن الاستفادة من الرياح الموسمية في إقامة تبادل تجاري مع الساحل الشرقي لإفريقية ، وأصبح من المعتاد إرسال أسطول تجاري ضخم من السفن كل عام على طول الساحل الشرقي لإفريقية كله .

ويعتبر العمانيون أول شعب يقيم مستوطنات له على الساحل الشرقي لإفريقية ، فبعد انتفاضهم على حكم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان هاجر جماعة منهم بقيادة سليمان وسعيد ابني الجلندي إلى شرق إفريقية بعد هزيمتهم من جيش الخليفة الذي أرسله إلى عمان .

وليس معروفاً بصفة أكيدة مكان استيطانهم في المهجر الذي ذهبوا إليه في إفريقية ، ولكن المعروف أنهم أقاموا في جزيرة باني شمالي كينيا ، وقد لعبت هذه الجزيرة دوراً هاماً في التاريخ العربي في الأعوام اللاحقة .

والموجة الثانية من العرب المهاجرين إلى شرق إفريقية حدثت إثر نزاع قام بين طوائف الشيعة الذين أنقسموا إلى مجموعتين متعاديتين ، وكان يقود إحدى هاتين المجموعتين زيد بن علي بن أبي طالب ، وقد هزم زيد وذبح على يد أنصار الخليفة ، واضطر أنصاره للنجاة بأرواحهم ، فذهبوا إلى شرقي إفريقية حيث استوطنوا بنادير في الصومال .

ومارس الزيدون السلطة على ساحل بنادير طوال ألفي عام ، ومع بداية القرن التاسع هاجمتهم مجموعة أخرى من المهاجرين قدمت من الإحساء في المملكة العربية السعودية .

فقد أبحر سبعة إخوة من الإحساء في ثلاث سفن وتوجهوا إلى ساحل

هنادير حيث أسسوا مدينتي مدغشقر وبروا . ورفض الزيديون الاعتراف
بسلطة القادمين الجدد ، وتراجعوا إلى الداخل حيث تزاجوا مع الوطنيين .

ونعود الآن إلى قصة حسن بن علي وأخوته الستة :

والمعروف أن حسن بن علي إما أنه أحد أبناء حاكم شيراز ، أو أنه ذلك
الحاكم نفسه . ولقد قرر لأسباب غير معروفة مغادرة شيراز . وغادر فارس
يصحبه أخوته الستة وعدد من أنصاره عام ٩٧٥ يملأهم أسطول من سبع سفن ،
وتوقف ركاب ثلاث من هذه السفن واستوطنوا أماكن مختلفة على طول
الساحل الشرقي لإفريقية . وتوقف السفينة الرابعة في ممباسة ، والخامسة في
بيمبا ، والسادسة — وهي التي تقل حسن نفسه — في كيلوا ، أما الخامسة فقد
رست في جوهانا في الكومور .

وفي كيلوا وجد حسن أن العرب يستوطنونها بالفعل فبدأ في إجراء
مفاوضات مع « لورد أوكيلوا » وهو رئيس قبلي إفريقي . واشترى منه
حسن الجزيرة واستطاع حسن وأتباعه أن يعيشوا في أمان من أي هجمات
إفريقية لأن الجزيرة كان يفصلها عن الأرض بحرى مائى عميق .
ومن بين الذين هاجروا إلى الساحل الشرقي لإفريقية الصينيون ،
والملاويون والواديبولي .

وقد نزل الصينيون على الساحل الشرقي لإفريقية في العصور الوسطى
يهدف التجارة . وعثر في عدة أماكن من الساحل على عملة وأوان فخارية
صينية تعود إلى عام ٧٠٠ ميلادية ، وأدخل الملاويون زراعة نخلة الأربعة
وقصب السكر ، ونبات التنبول المتسلق ، ويعتقد أن الواديبولي قد جاءوا
من شيراز وأدخلوا زراعة جوز الهند إلى المنطقة :

مجيئ البرتغاليين إلى شرق أفريقية

رأينا أن حسن بن علي اتخذ من كيلوا موطناً له عام ٩٧٥ هـ وقد وصل البرتغاليون إلى شرق أفريقية عام ١٤٩٧ هـ وتعرفت فترة الخمسمائة عام بين وصول حسن بن علي وبين وصول البرتغاليين بفترة (إمبراطورية الزنج) . وتعني كلمة زنج ، السود ، واستخدمها الكتاب العرب والفرس في الإشارة إلى الساحل الشرقي لإفريقية بأنه « أرض السود » ، أو زنجبار ، وفي الأيام السابقة أطلقت كلمة زنجبار أو « أرض الزنوج » ، على منطقة الساحل الشرقي لأفريقية بأكملها .

وأثناء فترة إمبراطورية الزنج ، قامت على طول الساحل بعض الدول العربية والفارسية أو السلطنات ، وتمتعت دولة كيلوا الشيرازية بالسيادة على معظم المدن الساحلية الأخرى ، ولذلك سميت إمبراطورية

وازدهرت خلال هذه الفترة تجارة الذهب والعاج والرقيق بين ساحل إفريقية وآسيا . وتطورت المدن والمراكز التجارية على الساحل حجاجاً ، وما زالت أطلال هذه المدن تنتشر للآن على طول الساحل . ومارست كيلوا باعتبارها أقوى هذه الدول الساحلية نفوذاً كبيراً على ثقافة المنطقة كلها وقد كانت فارسية الصبغة أساساً . وترك التزاوج بين المستوطنين الفرس والسكان الوطنيين علامة دائمة على سكان منطقة الساحل الذين يؤكدون حتى اليوم أنهم من أصل شيرازي .

وانشأ الشيرازيون كثيراً من المساجد الجميلة ، تحمل أسلوباً هندسياً مميزاً ، يمكن تمييزه بسهولة في أطلال المساجد الكثيرة على طول الساحل .

وقد أطاح البرتغاليون بامبراطورية الزنج .

ففى خلال القرن الخامس عشر حاول الملاحون البرتغاليون البحث عن طريق بحرى إلى الهند والشرق الأقصى بالدوران حول أقصى نقطة جنوبية فى أفريقيا . وجدير بالذكر أنه بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية فى القرن الخامس أعقبها عصور الظلام التى عاشت أوربا خلالها فى حالة من الفوضى ، والجهل ، وإراقة الدماء حتى القرنين الخامس عشر والسادس عشر اللذين عرفا به « عصر الاكتشافات » ، ولم تكن هناك صلة تذكر بين أوربا وإفريقية ، ولذلك لم يكن الأوروبيون يعرفون الكثير عن حجم إفريقية الحقيقية . وكل ما توصلوا إلى معرفته ، أنه إذا أبحرت سفينة إلى ساحل إفريقية ودارت حول نهاية القارة ، فإنها يمكن عندئذ أن تصل إلى الهند بالإبحار شرقا عبر المحيط الهندى ،

ولم يتحقق أول نجاح كبير فى هذا الصدد إلا عام ١٤٨٦ ، عندما دار الملازم البرتغالى بارثولوميو دياز حول الطرف الجنوبى لإفريقية ، وأبحر على طول الساحل الشرقى حتى بحر الأسماك الضخمة . ورفض بحارته المضى إلى أبعد من ذلك خوفا من قسوة الجو ، واضطر للعودة إلى وطنه . وبسبب الرياح القوية اختار تسمية الرأس الجنوبى برأس العواصف ، ولكنه عندما أبلغ ملك البرتغال بمغامرته ، اقترح عليه الملك تسميته برأس الرجاء الصالح .

وبوصوله إلى تلك المنطقة يكون قد مهد الطريق إلى استكشاف الطريق إلى الهند .

بعد ذلك بعشر سنوات وصل مكتشف البرتغالى آخر هو فاسكو دى جاما إلى الهند عن هذا الطريق . فقد غادر لشبونة فى ٨ يوليو ١٤٩٧ ، ودار حول رأس الرجاء الصالح فى ديسمبر ، وأبحر على طول الساحل الشرقى ، وتوقف فى موزمبيق فى ٢ مارس ١٤٩٨ . ثم واصل السير على طول الساحل الشرقى ، ورسا فى ممباسة فى ٧ أبريل ١٤٩٨ . بعد أن أصيب بنكسة وهو

يحاول دخول ميناء ممباسة واصل السير إلى ماليندى حيث استقبله السكان بالكرم والترحاب . ومن هناك رافقه البحار العماني أحمد بن ماجد الذي تولى قيادة بقية الرحلة عبر المحيط الهندي . وقد غادر ماليندى بعد توقف تسعة أيام ، ووصل كلكتا بالهند في ٢٨ مايو ١٤٩٨ ، وبعد حوالي قرن من الاكتشافات وصل البرتغاليون أخيرا إلى الهند بحرا عن طريق جنوب أفريقية وذلك بمساعدة العمانيين . وجدير بالذكر أن فاسكو دي جاما وجد في كل من زمبيق وماليندى ، عربا يستوطنونهما ، ولغة عربية يجرى التخاطب بها على نطاق واسع .

وأثناء عودة فاسكو دي جاما من الهند بعد حوالي عام توقف مرة أخرى في ماليندى ، وأقام نصبا تذكاريا من الحجر في منطقة البحر في جنوب المدينة . ومازال هذا النصب التذكارى قائما هناك ، ويعتبر من أبرز المواقع السياحية في كينيا . وقد عاد فاسكو دي جاما إلى لشبونه في سبتمبر ١٤٩٨ .

وعقب رحلة فاسكو دي جاما التاريخية إلى الهند بدأ البرتغاليون في الحال يرسلون بعثات تجارية منتظمة إلى الهند والشرق . وبدأت سفنهم تظهر شيئا فشيئا في مياه المحيط الهندي ، وفي منتصف القرن السادس عشر كان البرتغاليون قد أنشأوا إمبراطورية تجارية كبيرة في الشرق ضمت هرمز عند مدخل الخليج ، ومواني مسقط وصحار وقريات في عمان ، ومحطات تجارية مختلفة على طول الساحل الغربي للهند ، وأجزاء من سيلان وملقا ، وعدد من الممتلكات في خليج الملايو . . كذلك أصبح الساحل الشرقي من أفريقية جزءا من تلك الإمبراطورية الواسعة . وعاما بعد آخر كانت ثروات الشرق تنقل عبر المحيط الهندي إلى البرتغال ، التي حققت تطورا كبيرا في القوة والإزدهار .

وأدرك البرتغاليون بعد هذا النجاح أنه لا بد لهم من السيطرة على الساحل الشرقي لإفريقية حتى تكون لهم مجموعة من الموانئ المناسبة لتحصل منها (م ٤ - عمان وشرق إفريقيا) .

سفنهم على الماء والطعام الذى تحتاج إليه فى رحلاتها الطويلة ، وأن تصبح مثل هذه الموانى نوعاً من المحطات فى منتصف الطريق بين البرتغال والشرق . ولم يعتبر البرتغاليون ممتلكاتهم فى شرق أفريقية ، فى أهمية المناطق الغنية الخاضعة لهم على الجانب الآخر من المحيط الهندى .

وكان إخضاع البرتغاليين للساحل الشرقى من أفريقية ثم سقوط إمبراطورية الزنج فيما بعد - قد بدأ عام ١٥٠٢ عندما قام فاسكو دى جاما برحلته الثانية إلى الهند

ففى طريق رحلته توقف فى كيلوا وأرغم السلطان على التعهد بدفع مبلغ سنوى لملك البرتغال . وفى العام التالى جاء قائد برتغالى آخر يدعى روى نورانزو رافاسكو وظل يبحر فى المياه المطلّة على جزيرة زنجبار لمدة شهرين ، واستولى خلال هذه الفترة على عشرين من السفن الشراعية المحملة بالعاج ، وأصداق السلاحف ، والشمع والحرير والمنسوجات القطنية . وحاول حاكم زنجبار الذى ساءت له تلك الغطرسة مقاومة البرتغاليين بتجهيز كل مدافعه والاستعداد بحيش من أربعة آلاف مقاتل . لكن رافاسكو تغلب عليه بسفنه المجهزة بالمدافع ، وأرغمه على توقيع تعهد يدفع ١٠٠ من العملة الذهبية (تساوى فى ذلك الحين ٨٧ استرلينيا) و ٣٠ من قطعان الماشية سنوياً . وفى عام ١٥٠٥ ذهب حاكم الهند البرتغالى دون فرانسيسكو دالميدا إلى كيلوا وهو فى طريقه إلى الهند

وحيث أن السلطان لم يدفع المبلغ الذى تعهد بدفعه لفاسكو دى جاما دون فرانسيسكو دالميدا أنزل ٥٠٠ من رجاله إلى كيلوا وأحرقوها . كما عزلوا الحاكم وعينوا بدلاً منه رجلاً يدعى محمد أنكونى .

ولم يجد سكان كيلوا خياراً سوى الموافقة على أن يدفعوا سنوياً ٢٠٠٠ من العملة الذهبية والاعتراف بسيادة ملك البرتغال عليهم . ثم مضى دالميدا إلى ممباسا حيث أرغم حاكمها على الاستسلام . ولما رفض قصص دالميدا

المدينة وأحرقها . وفي نفس العام بدأ البرتغاليون بناء قلاع من الحجر في كياوا وسوفالا . وأرغموا سلطان لامو^١ على الاستسلام في العام التالي ، ودفع ضريبة سنوية لهم .

وفي عام ١٥٠٩ عين ملك البرتغال ، دون كوارت دى نيموس حاكما على جميع الممتلكات البرتغالية في أفريقية والجزيرة العربية . ثم زاد الحاكم الجديد جزر مافيا وريمبا وزنجبار من أجل جمع المبالغ التي لم يدفعها الأهالي . وأذن سكان مافيا^٢ ، لكن أهالي ريمبا لجأوا إلى ممباسة وأخذوا معهم معظم ما يملكون . كذلك قاومت زنجبار الحاكم . فقام البرتغاليون بالاستيلاء على زنجبار ونهبها ، وأرغموا سكانها على الفرار إلى الأدغال .

وكما اتضح بعد ذلك . وفي وقت قصير نسبيا - فإن جميع المدن الساحلية الهامة قد وقعت تحت سيطرة البرتغاليين ، وأنها أرغمت على دفع الأتاوة السنوية للملك البرتغال . ودرج البرتغاليون على الإبقاء على السلاطين المحليين كحكام إسميين طالما أنهم يشهدون بسياسة البرتغاليين ، ويواظبون على دفع المبلغ المقرر عليهم سنويا .

وقد وقعت أحداث عديدة في القرن السادس عشر على الساحل الشرقي لأفريقية بعد أن جعل البرتغاليون من أنفسهم سادة المنطقة^٣ . ولم تخضع مدينة ممباسة سلميا لحكم البرتغاليين وقد سببت لهم متاعب كثيرة . وكانت مايندى من ناحية أخرى على علاقة طيبة بالبرتغاليين منذ وصول فاسكو دى جاما ، وظلت كذلك زمنا طويلا خلال سيطرة البرتغال على شرق أفريقيا . كذلك أصبحت جزيرة زنجبار على علاقة صداقة بهم ، وبمرور الوقت استثبت من دفع الضريبة السنوية . بينما ظلت جزيرة ييمبا على عدااء مستمر لإزعاجهم ، وكانت تؤيد شعب ممباسة في انتفاضاته ضد الحكم البرتغالي .

وعين مسئول برتغالى يدعى ، نونودا كونها ، حاكما عاما في الهند عام ١٥٢٨ ، وقد توقف وهو في طريقه لتولى منصبه في زنجبار حيث تلقى عدة شكاوى من الأهالى عن استمرار إثارة جيرانهم في ممباسة للمتاعب ، وقيامهم بأعمال عدوانية .

وقد قرر ، نونودا كونها ، في الحال أن يلحق شعب ممباسة درسا قاسيا ، فشن هجوما على ممباسة . بمساعدة قوة من الجنود المحليين ، قدمهم إليه حاكما زنجبار وماليندى ، وأرغمت ممباسة في النهاية على الاستسلام ، وفرض على شعبها ضريبة سنوية كبيرة من الذهب .

وقد حدث بعد ذلك عندما علم حاكم ممباسة بمرض الحاكم البرتغالى أن تصور أنه يمكنه تأجيل تنفيذ الأوامر التى كان الحاكم البرتغالى قد أصدرها ، فغضب نونودا كونها ، وأحرق مدينة ممباسة ، ودمر مزارع جوز الهند بها .

ثم استقل سفينته وأبحر إلى الهند ، وقد أدت هذه العقوبة إلى استسلام شعب ممباسة للسيادة البرتغالية ، ولم تعد ممباسة مصدر متاعب للبرتغاليين خلال فترة طويلة بعد ذلك .

وخلال السنوات الخمس التالية حكم البرتغاليون كل المنطقة الساحلية من باراوا وحتى كيب كورينتز بدون أن يواجهوا أية متاعب . وكان حكمهم يتسم بالطغيان والقوة ، ولذلك كرههم الأهالى كراهية شديدة . وتعود الأهالى أن يطلقوا على الحاكم البرتغالى اسم « عفريت » (شيطان) .

ولم يتحمل سكان المنطقة الساحلية ، الحكم البرتغالى طويلا ، فقاموا بالثورة على طول الساحل ، وتوالى ثوراتهم حتى نهاية القرن السادس عشر ، وفى عام ١٥٨٦ وصل إلى شرق إفريقيا قرصان تركى يدعى على

بك ، وزعم أنه موفد من سلطان تركيا ليخلص مسلمي شرق أفريقيا من طغيان الحكم البرتغالي . واستقبله حكام كيزمايو ، وفازا ، ولامو ، وممباسا ، أحسن استقبال . وقاتل البرتغاليين وطردهم من معظم مستوطناتهم . وبعد ذلك أبحر إلى البحر الأحمر ، حاملا معه قدراً كبيراً من الغنائم ، وخمسين أسيراً برتغاليا .

وقام حاكم ماليندى - الذى كان يتعاون مع البرتغاليين - بإبلاغ نائب حاكم الهند فى الحال بما جرى ، فأقبح أسطول برتغالى مكون من ١٨ سفينة فى العام التالى ، من أجواء لمعاينة سكان المدن التى شاركت فى ذلك التمرد ،

وفى عام ١٥٨٩ عاد على بك إلى شرق أفريقيا ، واستقبل فى ممباسا حيث بدأ فى الأعداد لحملة ضد مدينة ماليندى . وعندما علم نائب الحاكم فى الهند بعودة على بك ، أرسل أسطولاً من عشرين سفينة إلى ممباسا لمنع تكرار التمرد .

وفى هذه الفترة نشأ موقف غير عادى فى ممباسا . فقد وصلت من داخل القارة قبيلة من المتوحشين تسمى وازيمبا . وهم قبيلة من أكالة لحوم البشر تعيش جنوب نهر زامبيزي . وقد ظلت لعدة سنوات تنقل فى اتجاه الشمال على طول الساحل ، وتخرب المدن التى تمر بها . وقد استولت فى عام ١٥٨٧ على كيلوا ، وبعد تدميرها أكل أفرادها معظم الذين وقعوا فى أسرهم . وواصلت تقدمها على طول الساحل حتى وصلت إلى ممباسا قبيل وصول الأسطول البرتغالى الذى أرسل لإخماد التمرد الذى دبره على بك . ولذلك وجد سكان ممباسا أنفسهم بين نارين ، فإلى جانب المدينة على البر يتربص بهم الوازيمبا ، ومن ناحية البحر يرسلو الأسطول البرتغالى .

ووجد الوازيمبا صعوبة فى دخول المدينة بسبب تحصيناتها . ولكن الأهالى سمحوا لهم فى النهاية بالدخول بعد أن أقنعوهم بأنهم سيقاتلون معهم

ضد البرتغاليين . لكنهم ما إن دخلوا المدينة حتى انقلبوا على سكانها وذبّحوهم . وألقى الذين استطاعوا الهرب ، بأنفسهم في البحر ليقتضى عليهم البرتغاليون الذين كانوا في انتظارهم . ووقع على يلك نفسه في الأسر ونقل إلى البرتغال .

ثم واصل الوازيمبا تحركهم شمالاً وهاجموا ماليندى ، لكنهم هزموا على يد البرتغاليين ، وقضى عليهم تماماً . فقد ساعد الواسيجيجيجو «البرتغاليين ضد الوازيمبا ، وهم قبيلة أخرى بدائية جاءت إلى ماليندى من المناطق الداخلية عام ١٥٧١ .

ولم تكن جزيرتا ييمبا وزنجبار قد تعرضتا لمناعب من الوازيمبا ، كما لم تنضم زنجبار للتمرد الذى دبرته ممباسا .

وفى عام ١٥٨٧ ذبح سكان ييمبا فى ليلة واحد جميع البرتغاليين المقيمين فى المدينة . رجالا ونساء وأطفالا .

ولقى رئيسهم - الذى تعاون مع البرتغاليين - نفس المصير ، لكنه تمكن من الهرب فى آخر لحظة إلى ماليندى .

وفى نفس الوقت - ورغم أحداث عام ١٥٨٩ الرهيبة - فإن سكان ممباسا استمروا فى إثارة المناعب للبرتغاليين وهو ما دفع البرتغاليين إلى مهاجمة ممباسا مرة أخرى عام ١٥٩٢ ، وتعيين حاكم ماليندى سلطاناً على ممباسا . وقرر البرتغاليون اتخاذ ممباسا عاصمة لممتلكاتهم فى شرق إفريقيا إدراكاً منهم لأهميتها وتحصيناتها . وقرروا فى عام ١٥٩٣ بناء قلعة حصينة سميت قلعة المسيح ، ووصل أسطول برتغالى إلى ممباسا للمساهمة فى العمل ولمواجهة أى اضطرابات .

وفى حوالى هذه الفترة زارت أول سفينة تجارية بريطانية المحيط الهندى . وبذلك لم يعد البرتغاليون حكاماً بلا منازع نشتمتعون بأرباح التجارة ، رغم

أنهم كانوا أول الأوروبيين الذين يقيمون تجارة بحرية ضخمة مع الشرق .

وبينما كان القرن السادس عشر يوشك على الانتهاء ، فإن الهولنديين والفرنسيين والإنجليز بدأوا يظهرون في الشرق كمنافسين خطرين للبرتغاليين .

وفي عام ١٦٠٠ شكل عدد من تجار لندن الأثرياء شركة الهند الشرقية بغرض التجارة مع الشرق . وكانوا قد بعثوا قبل ذلك ببضع سنوات في عام ١٥٩١ بعثة إلى جزر الهند الشرقية لاستطلاع إمكانيات التجارة مع تلك المناطق . وكانت هذه البعثة تتكون من ثلاث سفن . إحداها تسمى « ادوارد بونا فينتير » ويقودها سير جيمس لانكستر ، ووصلت زنجبار في ٧ نوفمبر ١٥٩١ ، وظلت هناك حتى ١٥ فبراير ١٥٩٢ ، ثم واصلت رحلتها إلى جزر الهند الشرقية وقد أعجب الزوار الإنجليز بخصوبة أرض زنجبار وبكرم شعبها .

وبالطبع لم يكن البرتغاليون سعداء بوصول أوروبيين آخرين إلى الساحل وإلى مياه المحيط الهندي ، حيث كانوا يرغبون في بقاء كل تجارة الشرق في أيديهم . ولذلك حاولوا أن يحرضوا السكان ضد الإنجليز باتهامهم بالوحشية ، وبأنهم يأكلون أسراهم . لكن هذه الأكاذيب لم تحقق الغرض منها ، فعلاخل إقامة الزوار الإنجليز في زنجبار كانت تصرفاتهم ودية مع الأهالي .

وشهدت بداية القرن السابع عشر ، ظهور عدد من السفن الإنجليزية في أماكن مختلفة على طول الساحل وكانت في طريقها إلى الهند . وفي عام ١٦٠٨ وصلت سفينة إنجليزية اسمها « أتشينسيون » إلى بيمبا للتزود بالماء ، واستقبلها الأهالي في البداية بالود ، لكنهم — بسبب تحريض البرتغاليين — انقلبوا عليها وهاجموا بعض تجارتها أثناء تزودهم بالماء .

وفي العام التالي وصلت سفينة إنجليزية أخرى تسمى « يونيون » إلى

فرنسجار : وعومل ركاها معاملة جافة من البرتغاليين . وأعتقل البرتغاليون
ثلاثة من بحارتها كانوا قد وصلو إلى الشاطئ في قارب صغير . وأمام هذا
التطور غير المتوقع هرب الباقيون بالقارب إلى السفينة .

وكان واضحاً من سلوك البرتغاليين أنهم باتوا منزعجين للغاية
من وصول أعداد متزايدة من السفن الانجليزية في طريقها إلى
الهند . ومع بداية القرن السابع عشر بدأت سيادة البرتغاليين على الشرق
تتعرض للتهديد .

و
أرسل
وصوط
إفريقية
مواني
على الماء
كانوا
رحلات
جعلوا
بالنسبة
الدول

و
في بلاد
بها
١٥٠٩
استولى
البرتغاليون
و
بالجهد
أما كن

البرتغاليون في عمان

وأينما كيف وصل فاسكودى جاما إلى كلكتا في الهند ، وكيف أرسل ملك البرتغال ، فرانسيسكو ليحكم الهند . وكان البرتغاليون قبل وصولهم إلى الهند حكاماً على المستوطنات الواقعة على امتداد ساحل شرق إفريقيا . وكان اهتمامهم الأساسى فى ساحل شرق إفريقيا هو أن تكون لهم موانئ يتوقفون بها أثناء رحلاتهم الطويلة إلى الهند ، للراحة ، والحصول على الماء والطعام ، والقيام - إن أمكن - بقدر من التجارة . لكنهم كانوا أكثر اهتماماً بالتجارة مع الدول الأكثر ثراءً فى الشرق . وبعد رحلات متكررة خلال فترة تتراوح بين عشر وخمسين سنة ، جعلوا من أنفسهم سادة على المحيط الهندى ، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير بالنسبة لهم ، لأن المحيط الهندى كان وقتئذ تحت سيطرة العرب وبعض الدول الشرقية .

ولما كان حاكم كلكتا لا يشعر بوجوب نحو البرتغاليين ولا يطبق رؤيتهم فى بلاده ، فإنهم مضوا جنوباً فى الهند ووصلوا كوتشين حيث شيدوا قلعة بها . ومن كوتشين هاجموا السفن العربية فى بحر العرب . وفى عام ١٥٠٩ قابل ألميدا أسطولاً من السفن العربية والمصرية فهزمه . وبذلك استولى على تجارة المحيط الهندى من العرب وأصبحت بعدها فى يد البرتغاليين .

وقام ألفونسو دالبوكيرك - الذى عين نائباً للملك فى الهند بعد ألميدا - بالجهود الأكبر لتحويل البرتغال إلى قوة تجارية رئيسية فى الشرق . واختار أما كن ليقم فيها البرتغاليون قلاعاً لحماية سفنهم على طرق التجارة

الرئيسية ، كما تساعدهم هذه القلاع على منع العرب من استخدام تلك الطرق .

وجددير بالذك أن العرب تبادلوا التجارة في الماضي مع فارس والشرق الأوسط عن طريق منطقة الخليج ، ومع مصر عن طريق البحر الأحمر . ولذلك أراد البوكيرك أن يضع حداً لتلك التجارة ، حتى تحتكر السفن البرتغالية نقل السلع عن طريق رأس الرجاء الصالح .

وتنفيذاً لتلك الخطة استولى أولاً على هرمز ، الواقعة عند مدخل الخليج ، ثم استولى على سقطرة في خليج عدن ، وبعد أن استولى عليهما تأكد له أن السفن العربية لن تستطيع استخدام الخليج والبحر الأحمر للوصول إلى موانئ الشرق الأوسط من المحيط الهندي .

ومن هرمز توجه البوكيرك إلى عمان ، وعندما وصلها عام ١٥٠٧ (ويذكر بعض المؤرخين أن ذلك حدث عام ١٥٠٨) أحرق أسطولا للصيد في رأس الحد ، ثم هدد سكان مدينة فلهاث الذين دانوا له ، فقد كانوا غير مجهزين للدفاع عن أنفسهم .

وقد أظهر سكان قريات استيائهم من الأعمال الوحشية التي ارتكبتها البوكيرك ، فرد على موقفهم هذا باقتراف مزيد من الفظائع ، وحرق المدينة ، ودم معالمها ، ثم غادروها إلى مسقط ، وقد أثارت اهتمامه بمزارعها وحدائقها وأسواقها ، التي كانت تزخر بمختلف السلع ، ومن ذلك الوقت أعلنت مسقط كجزء من مملكة هرمز البرتغالية .

وقد وصف البوكيرك نفسه مدينة مسقط وأبدى إعجابه بها وبروعتها ، وقرر إخضاعها لسلطان البرتغال ، وفرض عليها جزية سنوية .

وقبل أن يبدأ التفاوض حول مطالبه غير رأيه بسرعة وأمر رجاله بنهب المدينة وتدمير كل السفن الراسية في منائها . وتعرض الأهالي للقتل ،

أما الذين بقوا منهم على قيد الحياة فقد قطعت آذانهم وأنوفهم ، ثم تقدم البوكيرك نحو صحار ، ونحور فكان ومنها إلى هرمز حيث استولى عليها في أكتوبر ١٥٠٧ .

وأقام البرتغاليون في الفترة من ١٥٠٧ - ١٦٥٠ امبراطورية تجارية قوية في منطقة المحيط الهندي ، وكان اهتمامهم الأساسي ينصب على التجارة ، ولم يكن لديهم اهتمام بالسكان المحليين للمدن الساحلية التي أخضعوها . وكلما إلزم الناس الهدوء تركوا ليعيشوا في سلام ، ولكنهم كانوا يتعرضون لعمليات قمع إذا أثاروا المتاعب .

ولم يكن ساحل عمان مركز النشاط التجاري البرتغالي ، ولكن كان جزءاً هاماً من تلك العمليات ، وقد أقام البرتغاليون خلال إقامتهم في المنطقة أربع قواعد رئيسية على طول الساحل في قريات ، ومسقط ، وقلهات ، وصحار . واعتبرت قاعدة مسقط أكثرها أماناً ، ولذلك أصبحت مركز نشاطهم كله . وأصبحت هرمز العاصمة الإقليمية .

وشيدت مجموعة من المباني استكملت حوالي عام ١٥٣١ واحتلت مساحة كبيرة قرب مكتب الحمامات في مسقط ، في مواجهة قلعة الميراني وسميت بالجزيرة ، وكانت تضم قصر الحاكم ، وثكنات عسكرية ، ومخزناً للسلاح ، ومصنعاً ، وكنيسة . وكانت مركزاً للإدارة البرتغالية . وقد ظل أحد هذه المباني قائماً ، ويعرف باسم بيت جريزة ، وقد تم هدمه وإعادة بنائه على نفس النمط الهندي للمحافظة على شكله التاريخي . ويقال إن هذا المبنى قد استخدم كقصر مؤقت للسيد سلطان بن أحمد من عام ١٧٩٣ حتى عام ١٨٠٠ ، عندما استكمل بناء قصره . ويوجد الآن فوق نفس موقع هذا القصر ، مقصر الحديد الذي بناه جلالة السلطان قابوس بن سعيد .

وفي عام ١٥٢٧ بدأ البرتغاليون في بناء قلعتي الجلالى والميراني .

وقد تم تجديد قلعة الجلالى عام ١٥٨٧ والميراني عام ١٥٨٨ حيث
 اتخذتا شكلهما الحالى . وقد بنى مليشوار كالكا قلعة الجلالى وكانت
 تسمى قلعة سان جواز ، وبنى دون مانويل دى سوزا كوتينهو قلعة
 الميراني التى كانت تسمى قلعة كابتن .

وقد توفى البوكيرك عام ١٥١٥ لكن البرتغاليين لم يتوقفوا . فقد
 تحركوا بحراً فى اتجاه الشرق ووصلوا إلى الصين واستولوا على جزيرة
 ماكاو عام ١٥٥٧ .

وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر حدث تدفق للتجار الأوربيين
 الآخرين من هولندا وبريطانيا وفرنسا ، وبدأوا يهتمون بمنطقة الخليج .

إنهيار البرتغال

مع اقتراب نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر بدأت قوة البرتغاليين في الشرق في الأفول . وأوجد ظهور دول أوربية أخرى في المحيط الهندي تحدياً للاحتكار الذي كان البرتغاليون يتمتعون به من قبل في هذه المنطقة . يضاف إلى ذلك أن الأمراض الاستوائية والمعارك المستمرة التي أدت إلى تناقص عدد المستوطنين البرتغاليين في المنطقة إلى الحد الذي أصبح فيه من العسير وجود ما يكفي من الرجال لحراسة ممتلكاتهم الممتدة على مناطق واسعة .

وكانت الكراهية العنيفة لهم من الناس المدين أخضعوهم ، سبباً آخر عجل بانهيار البرتغاليين . ففي القرن الأول من ظهور سلطتهم في الشرق ، ارتكبوا كثيراً من الأعمال الوحشية ، والغدر بالناس ، والاستيلاء على أموالهم ، ولم يفعلوا شيئاً لاكتساب ود أو احترام رعاياهم . ولم يكن غريباً - على ضوء قسوتهم وغطرستهم - أن ينتهز رعاياهم أول فرصة متاحة للتمرد على حكمهم .

وجاءت أول ضربة عنيفة لحكم البرتغاليين في عام ١٦٢٢ عندما طردهم الفرس من هرمز . وكانت جزيرة هرمز التي أخضعوها عام ١٥١١ ذات أهمية بالغة لهم لأنها مفتاح الدخول إلى منطقة الخليج .

وجاء طرد البرتغاليين من هرمز على مرحلتين ، الأول : تولى الشاه عباس العرش في فارس عام ١٥٨١ ، والثاني حدوث أول اتصال لبريطانيا مع فارس من خلال بعثة شيرلي عام ١٥٩٨ . وقد أعقب هذه البعثة منح شركة الهند الشرقية في عام ١٦٠٠ ، امتيازاً يسمح لها بإقامة مصالح

بريطانية في منطقة المحيط الهندي . وقد نتج عن اتصال البريطانيين مع
الشاه عباس منح بريطانيا مركزاً تجارياً في جزيرة جاسك على ساحل هرمز
عام ١٦١٦ .

وكان الشاه عباس مهتما بطرد البرتغاليين من هرمز .

بينما كان اهتمام بريطانيا منصبا على توسيع مصالحهم التجارية . وقد
وحد الجانبان قواهما عام ١٦٢٢ ونجحاً في طرد البرتغاليين من هرمز .
وامتنعت شركة الهند الشرقية عن مشاركة الفرس في مزيد من الغزوات
خاصة ضد مستقط ، ومضى الشاه وحده فقام بالاستيلاء على خور فكان
وصحار ، وأنشأ قاعدة جديدة فيما يعرف الآن بيندر عباس التي سماها
على اسمه .

وامتد طرد البرتغاليين من هرمز بسرعة إلى الشرق ، وقد شجع شعوباً
أماكن أخرى على التمرد عليهم .

ولذلك وقعت انتفاضات خطيرة عام ١٦٣١ في كل الدول الساحلية ،
في شرق إفريقيا . وبدأت الثورة في ممباسا التي كانت خاضعة في ذلك
الوقت للسلطان يوسف ، وكان هذا السلطان قد تعلم في جوا على يد
البرتغاليين ثم تحول إلى اعتناق المسيحية على أمل أن يتمكن من إبقاء
ممباسا موالية للبرتغاليين بعد تعيينه سلطاناً وذلك للحفاظ على مركزه .
لكن سلطان ممباسا بدأ في التمرد على الحاكم البرتغالي للممباسا بسبب
إجراءات القمع الوحشية التي يتخذها . وفي عام ١٦٣١ حدث نزاع خطير
بين الحاكم البرتغالي والسلطان يوسف ، فجمع في السر ٣٠٠ من الجنود
الوطنيين واقتحم القلعة وانهال على الحاكم طعناً حتى الموت . وانطلق من
القلعة إلى الحى البرتغالي في المدينة وأحرقه تماماً وقتل جميع السكان البرتغاليين .
أما الذين نجوا من الموت فلأنهم لجأوا إلى دير محاور واجتمعوا به لمدة سبعة

أيام . ثم وافقوا على الاستسلام للسلطان يوسف بشرط المحافظة على حياتهم .
ولكن ما إن بدأوا في مغادرة الدير حتى قتلهم جنود يوسف . وبذلك فقد
حوالى مائة برتغالى حياتهم .

وعندما ذاعت أنباء هذا الحادث ، بدأت ثورة عامة ضد البرتغاليين
على طول الساحل . وأخذت ييمبا دورا رئيسيا في هذه الثورة . وفي الوقت
نفسه وصلت الأنباء المفزعة إلى نائب الملك في الهند ، الذى أسرع بإرسال
أسطول لمعاينة المتمردين . ورسا الأسطول في ممباسة في يناير ١٦٣٢ ،
وبدأ في محاصرة المدينة . وبعد حصار إستمر ثلاثة شهور ، بدون أن يحقق أى
نتيجة ، قرر القائد البرتغالى العودة إلى الهند لتجهيز قوة أكبر . وترك سفينتين
لحراسة مدخل الميناء . وبعد رحيله إستولى يوسف على السفينتين .

ولأن يوسف كان يعرف أن البرتغاليين سوف يعودون بقوة أكبر ، فإنه
فر إلى الحرب . ومن ثم قام بتجريد القلعة من تجهيزاتها ودمر المدينة ، وأبحر إلى
الجزيرة العربية . وطوال العامين اللاحقين سبب يوسف للبرتغاليين متاعب
مستمرة بمهاجمة ونهب مستوطناتهم في مدغشقر ، وجزر الكومور ، وفي
داخل القارة . ولكنه قتل في نوفمبر ١٦٣٨ عندما كان يقاتل ضد بعض العرب
وكان هذا آخر سلاطين ممباسة .

وفي نفس الوقت عاد البرتغاليون إلى ممباسة وعاقبوا المتمردين على
طول الساحل بقوة بالغة . وفي عام ١٦٣٥ كان يبدو أن البرتغاليين قد أعادوا
فرض سيطرتهم على ساحل شرق إفريقيا . لكن انتصارهم لم يدم طويلا ،
لأن عنصرًا جديدًا — هم العمانيون العرب — قد بدأ يظهر على المسرح هذه
المرّة ففضى نهائياً على سيطرة البرتغاليين على المنطقة .

ولعب شعب عمان دوراً هاماً في طرد البرتغاليين من عمان وكذلك
من الساحل الشرقى لإفريقية .

إن الروح الاستقلالية لدى العمانيين قد جعلتهم ينظرون إلى سيطرة البرتغاليين كتجربة مريرة ، فكانوا يتلهفون إلى الفرصة التي يستعيدون فيها استقلالهم .

ولذلك فقد بدأت بعد هزيمة البرتغاليين في هرمز عام ١٦٢٢ موجة نشطة ضد الأجانب . وقد حققت هذه الموجة هدفها أثناء حكم الإمام سلطان بن سيف ، وبعد ١٥٠ عاما من السيطرة البرتغالية ، انتقم العمانيون لأنفسهم في النهاية وذلك في ٢٣ يناير ١٦٥٠ .

وقد خلف الإمام سلطان بن سيف عمه عام ١٦٤٩ ، وكان عمه قد نجح في مساعيه لطرد البرتغاليين من الساحل العماني . وعندما انتخب الإمام سلطان إماما ، فإنه قرر إنهاء المهمة بطرد البرتغاليين من مسقط . ولذلك سخر ج على رأس جيشه من عاصمته الرستاق وقام بعدة هجمات غير ناجحة على المدينة ، بسبب تعزيز البرتغاليين لدفاعاتهم في مسقط بعد طردهم من هرمز .

ونصح تاجر هندي يقيم في مسقط يدعى ناروتيم الإمام سلطان بن سيف بشن هجومه في أحد أيام الأحد ، وكانت لناروتيم إبنة يرغب القائد البرتغالي في الزواج منها ، ولم يجد مهربا من إتمام هذا الزواج سوى طرد البرتغاليين من البلاد . ولذلك كتب خطابا للإمام سلطان يقترح عليه القيام بهجومه في يوم أحد ، وقام في الوقت نفسه باقناع القائد البرتغالي لحامية مسقط ، بأن يفرغ صهاريج المياه في قلعي الجلالى والميراني ، وكذلك نقل البارود والذخيرة من مخازنها ، على أساس ضرورة تجديد كل شيء في القلاع ، ما دام المتوقع تعرضها لحصار طويل .

وفي يوم الأحد ٢٣ يناير ١٦٥٠ شن سلطان بن سيف هجوما عنيفا ، واكتشف أن جميع الجنود البرتغاليين كانوا سكارى ، ولذلك استولى بسهولة على القلعتين .

لكن ضابطا برتغاليا يدعى كابريرا قام رغم كونه مخمورا بهجوم مضاد على رأس مجموعة صغيرة من الجنود ، لكنه وجد نفسه محاصراً بالأعداء ، وتقهقر إلى سوق القطن ، حيث وجد نفسه معرضاً للهجوم بالرماح - والبيض الفاسد - كما قيل ، وكانت تلك نهاية البرتغاليين في عمان .

والإمام سلطان بن سيف ينتمى إلى أسرة اليعاربة ، وشهدت المنطقة في عهده تكثيف المصالح البريطانية ،

وعقب نجاحه في طرد البرتغاليين عام ١٦٥٠ ، استقبل الكولونيل رينزفورد الذي أرسلته شركة الهند الشرقية للتفاوض على عقد معاهدة لإقامة وجود للشركة هناك ، لكن المعاهدة لم توقع بسبب وفاة رينزفورد .

وغير الإمام سلطان رأيته بعد ذلك وقرر عدم السماح بأى وجود استيطاني أوروبي في مسقط . واتخذ خلفاؤه من بعده نفس الموقف .

وركز الإمام سلطان بن سيف على الاهتمام بالبحر . وقاد عمان لأول مرة إلى طريق الرخاء الوافر داخليا وخارجيا . وبدأ فور قيامه بطرد البرتغاليين ، ببناء بحرية قوية .

وعندما وصلت أنباء نجاحه إلى شرق إفريقيا ، قرر شعب ممباسة طلب المساعدة من الإمام سلطان بن سيف لطرد البرتغاليين من ممباسة . وكان طبيعيا أن يتوجهوا إليه بهذا الطلب ، ليس لأنهم مسلمون فحسب ، ولكن أيضاً لأن بلادهم قد عانت الكثير تحت الحكم القمعي للبرتغاليين .

ووافق الإمام سلطان على طلبهم بترحاب ، وأرسل في عام ١٦٥٢ أسطولا صغيرا من مسقط لمساعدة شعب شرق إفريقيا في جهودهم لطرد البرتغاليين . وقد هاجم وأحرق المستوطنات البرتغالية في زنجبار وباقي ، وحدثت على ضوء نجاحه ثورات عامة في كل المدن الساحلية ضد حكم البرتغاليين . ولكن البرتغاليين صمدوا لبعض الوقت وتمكنوا من سحق تلك الثورات .

(م ه - عمان وشرق إفريقيا)

وعاد شعب الساحل يطلب من الإمام في مسقط لإرسال أسطول آخر لمساعدتهم . وفي عام ١٦٦٠ عبر الإمام سلطان مرة أخرى المحيط الهندي ، وبعد حصار طويل نجح في الاستيلاء على ممباسا من البرتغاليين . ولم يكن ممكنا أن يبقى الإمام سلطان بن سيف طويلا في ممباسا وكان عليه أن يعود إلى عمان ، حيث كانت الاضطرابات قد اشتعلت هناك في غيابه . وكان ذلك تطورا مؤلما لشعب ممباسا ، لأنه ما إن غادر الإمام سلطان بلادهم حتى عاد البرتغاليون واستولوا على ممباسا من جديد ، وأنزلوا أشد العقاب بالأهالي لتمردهم . وأدى ذلك إلى زيادة كراهية الأهالي للبرتغاليين بأشد مما كانت ، وصمم الأهالي على انتهاز الفرصة المناسبة لتنظيم ثورة جديدة .

وفي نفس الوقت مات الإمام سلطان بن سيف في عمان عام ١٢٨٠ . بعد حكم دام ١٩ عاما . وخلفه ابنه سيف بن سلطان الذي تولى الحكم من عام ١٦٨٠ - ١٧١١ . وورث الإمام سيف عن أبيه روحه الميالة للقتال ، ومن ثم فقد أكمل ما بدأه أبوه . وعاد سكان شرق أفريقيا يتصلون بالإمام سيف طالبين مساعدته بصفة عاجلة ضد البرتغاليين مثلما فعل والده ، وقد عمل الإمام سيف على توسيع حجم الأسطول العماني الذي تكون من ٢٨ سفينة ، وقيل إن أكبر سفنه كانت تحمل عددا من المدافع ، كان بعضها قد تم الاستيلاء عليه من البرتغاليين .

وقد وافق الإمام على مساعدة أهالي الساحل ، وقام بنفسه في مارس ١٦٩٦ بحصار ممباسا . واستمر الحصار ٣٣ شهرا ، وفي ديسمبر ١٦٩٨ استولى الإمام سيف على قلعة يسوع ، وبذلك جعل من نفسه سيد جزيرة ممباسا .

وقد نجح في العام التالي في طرد البرتغاليين من جزيرتي ييمبا وكيملوا ، كما حاول أن يأخذ من أيديهم موزمبيق التي كانت أقوى قلاعهم على الساحل الشرقي الإفريقي على الإطلاق . لكنه لم ينجح في ذلك ، وظلت

هوز مبيق في أيدي البرتغاليين حتى بداية السبعينات من القرن العشرين عندما استعقلت بعد الثورة التي وقعت في البرتغال نفسها .

وفي عام ١٧٠٠ بالتحديد وبعد حملات عسكرية متكررة ، أصبح خط الساحل بأكمله من مقديشو ثم جنوبا إلى كيلوا تحت سيطرة عمان ، ورغم محاولات البرتغاليين المتكررة لاستعادة سلطتهم هناك ، إلا أنهم لم يحققوا أى نجاح .

واضططر الإمام سيف للعودة إلى عمان ، حيث اهتم بتنفيذ عدد من المشروعات العامة ، خاصة إعادة تشغيل قنوات الري (الأفلاج) ، وتشجيع قنوات جديدة ، حيث كانت الحياة في عمان تعتمد على هذه الأفلاج في الزراعة .

وفي عهده أصبحت عمان دولة قوية - رغم أن أمجاده دفنت معه عند وفاته عام ١٧١١ ، لكن بقيت عشرات الألوف من أشجار النخيل التي زرعت في عهده ، مصدر الرخاء لشعبه .

وبالنسبة لشرقي إفريقيا ، فقد أصبح حكم المدن الساحلية الهامة في أيدي العرب العمانيين . فقد عين ناصر بن عبد الله المزروعى حاكما على ممباسة ، ووضعت زنجبار تحت حكم واحد من أسرة الحرث ، بينما عين أحد أفراد أسرة الشاهنة واليا على جزيرة باني ، وأصبحت يممبا تحت حكم حاكم ممباسة .

- ٨ -

ظهور أسرة البوسعيد

شهدت عمان سلسلة من الحروب الأهلية والمنازعات القبلية على مدى سنوات في أعقاب وفاة الإمام سيف بن سلطان :

وقد شجعت تلك الأحداث البرتغاليين على القيام بمحاولات جديدة لاستعادة ممتلكاتهم التي فقدوها على الساحل الشرقي لإفريقية : ومن ثم فقد نظموا حملة نجحت في استرداد مملكة عام ١٧٢٧ هـ . لكن هذا النجاح كان قصير الأمد لأن العمانيين العرب قاموا بعد سنتين بطردهم من مملكة وكذلك من أماكن أخرى على طول الساحل ، كانوا قد نجحوا مؤقتاً في استعادة وجودهم بها :

وقد تفاقمت الاضطرابات في عمان عندما تولى حفيد الإمام سيف بن سلطان ، الإمامة عام ١٧٢٨ هـ ولم يستطع بسبب ضعفه وعدم نضجه - أن يمارس سلطاته ، وقد اتخذ قراراً غير حكيم ، بأن طلب من شاه فارس مساعدته في إخماد الاضطرابات المحلية في عمان :

وقد استجاب الشاه لطلبه ، وبدلاً من أن يساعد الإمام الشاب ، فإنه قام بغزو عمان واستولى عليها ، وعامل الأهالي بأسلوب غير إنساني :

ولم يحتمل شعب عمان سلوك الشاه ، فقرر أن أفضل سبيل لإنقاذ بلادهم من هذا الوضع السيئ ، هو التخلص من ذلك الإمام الذي أثبت أنه ضعيف وغير جدير بمنصبه ، وانتخاب إمام جديد من أسرة مختلفة تماماً .

و عام ١٧٤٤ انتخب أحمد بن سعيد بن محمد البوسعيد إماماً . وحيث إنه أول إمام من عائلة البوسعيد ، فإنه يعتبر مؤسس أسرة البوسعيد التي

تحكم عمان حتى اليوم . ويستخدم أعضاء الأسرة الحاكمة لقب آل سعيد
للتمييز بينهم وبين الأعضاء الآخرين من عائلة البوسعيد الذين لا يتمتعون
مباشرة للأسرة الحاكمة .

وكان منصب والى صحر هو آخر منصب يتولاه الإمام أحمد قبل تعيينه
إماماً لعمان . وأثناء توليه صحر جمع جيشاً وقايل الفرس الذين غزوا صحر
عام ١٧٣٧ وأنزل بهم الهزيمة . وكان الإمام أحمد قد بدأ حياته العملية
تاجراً ، وتم ترشيحه للإمام سيف بن سلطان اليعربى كشخصية تتمتع بالكفاءة
والشجاعة وبعد النظر وقد أصبح بعدها - عندما حان الوقت - موضع سر
الإمام ومساعدته الأيمن في الشئون التجارية .

وقد شجع الإمام أحمد - عندما أصبح إماماً - التجارة ، واستعادت
مسقط في عهداه وضعها السابق كمدينة مزدهرة ومركز تجارى . رغم أن
هابصته كانت مدينة الرستاق على بعد ١٥٠ كيلو متراً من مسقط .

وكانت تمثل موقعاً استراتيجياً لحفظ التوازن بين الساحل والداخل .
وخلال فترة حكمه التى استمرت ٣٩ عاماً ، خاض حروباً طويلة للقضاء على
التحديات التى واجهته من جهات عديدة ، خاصة من اليعاربة ، ومن الغافرين
وجاءته آخر التحديات من أنجاله أنفسهم - سيف وسلطان عام ١٧٨٢ قبل
عام واحد من وفاته . وقد وقع القتال بينهما فى مسقط حيث قام الأب وأبناءه
بقصف كل منهما الآخر عبر الميناء . وكان الإمام أحمد يطلق نيرانه من قلعة
الميراني ، وأبناءه يطلقان نيرانهما من قلعة الجلالى ، ويحتفظان بأخييهما
الأصغر سعيد كرهينة . واستطاع سعيد الهرب ، فخفف الإمام أحمد
من هجومه .

وقد توفى الإمام أحمد عام ١٧٨٣ وخلفه ثانياً أبنائه سعيد ، لأن ابنه
الأكبر هلال لم يكن أهلاً للحكم لأنه كان ضريباً . وقد أثبت الإمام سعيد
ابن أحمد كفاءته كفائد ديني ، لكنه فشل كحاكم ، ولذلك انتزع

إبنه حمد السلطة السياسية منه ، ونقل العاصمة إلى مسقط ، حيث تولى
الحكم تحت لقب السيد ، وقد بقى والده في الرستاق لا يزال أبة مدلطة
حتى وفاته ، وكان هذا فيما بين سنتي ١٧١١ و ١٨٢١ م

ولقد رأينا أن الإمام عندما عاد من شرق إفريقيا إلى عمان قد عين على
المدن الساحلية الهامة في شرق عمان حكاماً من العرب العمانيين . ونظراً
إلى أن هؤلاء الحكام كانوا يدركون الأحوال المضطربة في عمان ؛ ويعلمون
أن الإمام غير قادر على التدخل في شئون شرق إفريقيا فقد رفضوا الاعتراف
بسلطة الحاكم العماني والخضوع له ، وجعلوا أنفسهم سلاطين مستقلين
للمدن التي عينوا عليها .

ففي ممباسة كان الحاكم المزروعى القوى ، الذى ظل يحكم مستقلاً لفترة
طويلة ، قد فرض سيادته على كل الساحل الإفريقى من ماليندى في الشمال إلى
بانيانى في الجنوب ، وكذلك على جزيرة بيمبا .

ومن ناحية أخرى فإن حاكم باقى الذى ينتمى إلى أسرة النباهنة قد رفض
هو الآخر الخضوع لإمام عمان .

وقد ظلت عائلتا المزروعى في ممباسة والنهاني في باقى في حرب مستمرة
ضد بعضهما البعض خلال جزء كبير من القرن الثامن عشر . وكانت كل منهما
ترغب في أن تكون لها السيادة على ساحل شرقى أفريقيا . ومن ثم فقد
عانى شعب الساحل بصفة مستمرة من المنازعات والمنافسات بين حكامهم
العرب المختلفين ، ومن المشكوك فيه أن يكون الأهالى قد عاشوا في ظلهم
ظروفاً أفضل من الظروف التي كانوا قد شهدوها من قبل تحت سيطرة
البرتغاليين .

لكن جزيرة زنجبار ظلت مع ذلك على ولائها لحاكم عمان خلال
فترة الاضطرابات التي سادت ممباسة وبيمبا في بقية الساحل .

وفي عام ١٧٤٦ أرسل الإمام أحمد بن سعيد مؤسس أسرة البوسعيد قوات إلى زنجبار لحفظ الأمن ومواجهة المزاريع في ممباسا .

لكن الإمام أحمد لم يستطع مع ذلك زيارة ممتلكاته في شرق أفريقية ، ولم يظهر الاهتمام النشط مرة أخرى بشئون شرق أفريقية ، إلا عندما أصبح الإمام السيد سعيد بن سلطان حفيد الإمام أحمد بن سعيد حاكماً على عمان في عام ١٨٠٦ .

لقد تحدثنا عن سيرة وأعمال السيد سعيد في الفصل السابق ، وعلينا الآن أن نرى كيف تصرف إزاء موقف الحكام العرب الذين لم يحافظوا على ولائهم لعمان .

ولقد كان اهتمام السيد سعيد مركزاً على حل المشكلات الداخلية في عمان خلال العشرين عاماً الأولى من حكمه ، ولم يكن قادراً على إعطاء اهتمام أكبر لممتلكاته في شرق أفريقية ، رغم إدراكه التام للمشاكل التي سببها الحكام غير الملتزمين بسيادته في المنطقة .

وقد قرر بمجرد استتباب النظام في عمان ، أن يلتقى بنظرة على هذه الحال غير المرضية لإبتداء بممباسا .

وانطلاقاً من هذا القرار غادر مسقط في بداية عام ١٨٢٨ على رأس أسطول كبير ، ووصل إلى ممباسا ، ومن هناك خاض مع المزاريع انتهت بهزيمة الحاكم المزروعى الذى أذعن ووافق على توقيع معاهدة تعترف بسيادة السيد سعيد . ونتيجة لذلك ترك السيد سعيد ٣٠٠ من الجنود البلوش في قلعة يسوع ، وأبجر هو إلى زنجبار حيث مكث هناك ثلاثة شهور . ومما يذكر أن زنجبار كانت موالية لحكام عمان منذ فترة طويلة ، ولذلك استقبل السيد سعيد هناك بحفاوة بالغة . وقد لفت انتباهه خصوبة أرض الحيرة وموقعها الثري على الساحل الشرقى . ووبما بدأ يفكر أثناء

تلك الزيارة في إمكان اتخاذ زنجبار عاصمة المستقبل للملكة في شرق إفريقيا ٥

وغادر السيد سعيد زنجبار عندما بدأت الاضطرابات في عمان ٥ بينما صاد المزاريع إلى مهاجمة ممباسة ومنعوا الطعام عن الجنود حتى أرغموهم على الاستسلام ٥

وخلال ثلاث سنوات أرسل السيد سعيد ثلاث حملات من مسقط ضد المتمردين من رعاياه في ممباسة. واستطاع القضاء على التمرد هناك عام ١٨٣٧. ووقع في الأمر واهد بن سالم رئيس قبيلة المزاريع و٢٦ من أنصاره وحكم عليهم بالسجن المؤبد في بنار عباس التي كانت تحت الحكم العماني ذلك الحين. وبذلك عادت ممباسة لحكم السيد سعيد ولم تنشأ أى متاعب أخرى ٥

وفي عام ١٨٣٢ قرر السيد سعيد اتخاذ زنجبار عاصمة له والإقامة فيها، وأدى ذلك القرار إلى نقل مقر السلطة، فبدلاً من أن يحكم شرق إفريقيا من عمان فإنه بدأ يحكم عمان من شرق إفريقيا. وقد اتخذ ذلك القرار رغم أن ممباسة وكيلا كانتا في ذلك الوقت أكثر أهمية من زنجبار - لكن السبب الرئيسي لاختياره يرجع إلى موقعها الرائع ٥

فهى تقع على مسافة بضعة أميال من الساحل الشرقى. وكانت زنجبار تتمتع بإمكانات التحول إلى مركز رئيسى للتجارة في شرق إفريقيا كلها، وكان السيد سعيد شديد الاهتمام بتطوير التجارة في تلك المناطق، وكان يدرك أن هناك فرصاً طائلة للتجارة فيها. وقد أراد أن يقيم مراكز تجارية داخل إفريقيا، بدلاً من شرق زنجبار وتمتد إلى الداخل حتى الكونغو. وأدرك أن زنجبار سوف تصبح بحكم موقعها مكاناً للتجميع والتوزيع لمعظم السلع التي تأتي إلى الساحل من الداخل ٥

وكانت هناك عدة أسباب أخرى أملت على السيد سعيد اتخاذ زنجبار عاصمة له . فمدينة زنجبار بها موانئ عميقة تصالح لرسو السفن الضخمة . كما أن الجزيرة بها موارد لا تنفذ من مياه الشرب النقية : لا مثيل لها على خط الساحل بأكمله . وكان يعرف أن ذلك سيجذب كثيراً من السفن المارة وهو ما ينشئ التجارة . ثم إن زنجبار كانت منطقة خصبة جداً ، ولا شك أن ذلك كان له أكبر الأثر على السيد سعيد الذي كانت له اهتمامات كبيرة بالزراعة .

لقد ثبتت محكمة قرار السيد سعيد بوضوح قبل نهاية عهده . فإن زنجبار التي كانت عبارة عن مجموعة صغيرة من الأكواخ يسكنها الأهالي الوطنيون قد تطورت بسرعة وأصبحت أضخم وأهم مدينة على ساحل شرقي إفريقية وشجع السيد سعيد العرب على استيطان زنجبار ، وتبعه الكثيرون الذين سرعان ما بدأوا في التوغل إلى داخل إفريقية كتجار ومستكشفين . وبدأ عصر من الازدهار الكبير ، وانتعشت التجارة على الساحل بطريقة لم تشهدها هذه المنطقة من قبل . وكلما توغل التجار العرب أكثر فأكثر إلى الداخل ؛ كلما انتشر صيت ونفوذ حاكم زنجبار في إفريقية . حتى أدى ذلك إلى ظهور مثل يقول : عندما يعزف أحد على المزمار في زنجبار فإنهم يرتصون في البحيرات .

وفي عهد السيد سعيد بدأ ساحل شرقي إفريقية يجذب من جديد اهتمام الأوروبيين بشكل جدي . وقد بذل السيد سعيد كل جهده لتشجيع التجار الأوروبيين على الإقامة في زنجبار ، وذلك بهدف تجارة ورخاء البلاد .

وفي عام ١٨٣٣ عقد معاهدة تجارية مع الولايات المتحدة الأمريكية ؛ وفي عام ١٨٣٧ افتتحت في زنجبار أول قنصلية أمريكية ؛ وكان التجار الأمريكيون يشترون العاج والكوبال ؛ وجمود الحيوانات المدبوغة التي

كانت تصل من الداخل ، ويبادلون تلك السلع بالمنتجات القطنية الأمريكية والمعدات الحربية ، وقد أرسل السيد سعيد أول بعثة تجارية إلى نيويورك في عام ١٤٨٠ برئاسة أحمد بن نهمان .

وفي عام ١٨٤١ افتتحت بريطانيا قنصلية لها في زنجبار ، وكان الكولونيل همرثون ، من القوات الهندية ، هو أول قنصل بريطاني .

وفي عام ١٨٤٤ افتتحت قنصلية فرنسية ، كما عين في زنجبار قناصل للبرتغال ، وإيطاليا ، وألمانيا والنمسا والمجر .

وقد حظيت الزراعة باهتمام شديد من السيد سعيد ، ويذكر له أهالي زنجبار دوره في زراعة القرنفل ، التي يعتمد عليها أساساً رخاء الجزيرة .

ورغم أن شجرة القرنفل أدخلت إلى الجزيرة في بداية القرن التاسع عشر ، فقد كان نفوذ السيد سعيد وراء زراعتها بطريقة منظمة وعلى نطاق واسع ، وكان الكثيرون في ذلك الوقت يعتقدون أن السيد سعيد ارتكب خطأ بتشجيع إدخال زراعة القرنفل إلى زنجبار ، وأن سياسته ستؤدي إلى دمار كل من زنجبار وبيدها . ولكن السيد سعيد الذي كان يتسم بالإصرار في مواقفه لم يستمع إلى تلك الآراء المتشائمة واستمر في خططه الشاملة لزراعة أشجار القرنفل في زنجبار وبيدها .

ويقال بأنه أصدر قراراً يقضي بزراعة ثلاثة أشجار قرنفل مقابل كل شجرة جوز هندي ، وأنه قرر مصادرة المزارع التي لم تكن تتمثل للملك القرار ، وعند وقت وفاته كان القرنفل قد أصبح ثالث أهم سلع للتصدير في زنجبار ، بينما في الوقت الحاضر تنتج زنجبار وبيدها تسعة أعشار الإنتاج العالمي من القرنفل ، وقد برهن ذلك على أن السيد سعيد كان محققاً تماماً في تشجيعه زراعة القرنفل

ولذلك سرق تبقى عمان وكذلك سيبقى العمانيون العرب .

وسبقه السيد معبد بصفة خاصة ، أثراً خالداً في تاريخ زنجبار ٥
 وبعد وفاة السيد معبد تولى الحكم لابنه السيد ماجد من عام ١٨٥٦
 إلى عام ١٨٧٠ م ثم خلفه السيد برغش من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٨٨٨ م ٥
 وفي أثناء عهد السيد برغش هب على زنجبار أعصار رهيب دمر أشجار
 القرنفل ، فصمم السيد برغش ، بأوامره القوية ، على استعادة حالة
 الرخاء السابقة ؛ بزراعة القرنفل ، وعلى إدخال بعض التحسينات في الحياة
 العامة للسكان ، فأنشأ خط أنابيب للمياه من نبع شيم شيم إلى المدينة ٥
 مما وفر مياه الشرب النقية للآهالى ٥

مباشرة وقلعة يسوع

تعتبر مباشرة الآن مدينة مزدهرة ، وقد اتسعت تدريجياً منذ بدأت شعوب الشرق في الملاحة التجارية بالاستعانة بالرياح الموسمية ، ولم تقتصر فائدة ميناء كيلنديني على كينيا وحدها ، وإنما استفادت منه أيضاً أوغندا ، وتنزانيا اللتان استخدمتا من أجل السلع المستوردة لموشى وأروشا اللتين تعتبران أقرب إلى مباشرة منهما إلى ميناء تانجا التنزاني ومباشرة جزيرة ترتبط بالبر عن طريق جسر ماكوبا كوزواي .

وقد لعبت هذه المدينة دوراً هاماً في تاريخ الزوار الأول لشرق إفريقيا ، وخاصة الفرس والبرتغاليون ثم العرب الذين احتفظوا بساحل طوله عشرة أميال من كينيا ، وبميناء كيلنديني كامتداد للأراضي التابعة لنزنجبار حتى السنوات الأولى من ستينات القرن العشرين عندما استقلت كينيا .

وقد أضافت قلعة يسوع فصلاً جديداً إلى التاريخ الطويل لمباشرة . وقد أنشأها البرتغاليون في نهاية القرن السادس عشر ، كخط دفاع مجهز ، للدفاع من مدخل ميناء مباشرة ، ولتأمين مركزهم على الساحل الشرقي لإفريقية ، وكان ظهور السفن التركية بقيادة علي بك في المحيط الهندي ، وثورات مباشرة ضد البرتغاليين سبباً في رفضهم لأن يبقى أفضل موانئ الساحل قاعدة لأعدائهم .

وكان محمد يوسف حسن الذي عينه البرتغاليون سلطاناً على مباشرة بعد اعتناقه المسيحية وذهابه إلى جوا للدراسة - قد انقلب على سادته في ١٦ أغسطس ١٦٣١ ، عندما دخل القلعة مع مجموعة من أنصاره .

وقتل قائدها بيتر و ابتاء دى جاميوا . وأصدر أوامره من القلعة لأتباعه بإحراق منازل البرتغاليين فى المدينة .

وكان محمد يوسف حسن قد سمى نفسه بعد اعتناقه المسيحية دوم جيروميرو شينجوليا ، ولما كان يعلم أن البرتغاليون سوف يرسلون تعزيزات إلى ممباسة ، فإنه هرب بعد عام وامتن القرصنة . وقام الجنود البرتغاليون بقيادة الكابتن بيتر رود ورجز بوتلو بإعادة احتلال القلعة وتجديدها .

وخلال ثلاث سنوات من ١٣ مارس ١٦٩٦ حتى ١٣ ديسمبر ١٦٩٨ أصبحت القلعة هدفاً لهجوم العمانيين العرب . ونتيجة لذلك دمرت بعض أجزائها ،

وفى عام ١٧٤٤ حلت أسرة البوسعيد محل اليعاربة فى عمان ، وعندما علم حاكم ممباسة محمد بن عثمان المزروعى بالتغيرات السياسية فى عمان ، أعلن استقلال ممباسة . وبعدها بخمس سنوات قتل داخل القلعة بيد أشخاص قيل أنهم أرسلوا من عمان ، واستطاع أخوه الهرب ، ثم العودة بمساعدة ضابط إنجليزى ، وأعلن نفسه حاكماً .

وعقب هذا النجاح ، حكم المزروعى ممباسة لفترة خلت نسبياً من المتاعب ، حتى بدأ السيد سعيد بن سلطان الكبير يحول اتهامه إلى ممتلكاته فى إفريقية .

لكن المزريع - الذين تمسكوا بالاحتفاظ باستقلالهم وضعوا أنفسهم تحت الحماية البريطانية . ووقعت اتفاقية الحماية داخل القلعة فى ٩ فبراير ١٨٢٤ . وفى ٢٥ يولية ١٨٢٦ سحبت بريطانيا ممثلها ، وفى يوم ٧ يناير ١٨٢٨ احتل السيد سعيد القلعة . وعين ناصر بن سليمان حاكماً وممثلاً له . لكنه اضطر فى نهاية العام أن يستسلم للمزروعى الذى يحاضر القلعة ومنع عنها الطعام ، وبعد ذلك تمكن من قتله ، لكن السلطان استعاد القلعة

هدون قتال في فبراير ١٨٣٧ ، واستخدمها كتشكنات لجنوده حتى عام ١٨٩٥ . وعين السلطان ، محمد بن عبد الله بكشويني قائداً لقواته . وفي يناير ١٨٧٥ تمرد بكشويني (وهو أصلاً من حضر موت) ، وفي ١٨ يناير قامت سفينتان بريطانيتان بقصف القلعة بالصواريخ والقذائف وألحقت بها أضراراً جسيمة .

وفي أول يوليو ١٨١٥ - وبعد أن أصبحت كينيا محمية بريطانية - تحولت القلعة إلى سجن لمنطقة الساحل ، وأعيد تخطيطها لتلاءم مع مهمتها الجديدة . وفي ٢٤ أكتوبر ١٩٥٨ حولت قلعة يسوع إلى "حديقة عامة" ، وفي ٢٩ نوفمبر ١٩٦٠ حولت القلعة إلى متحف .

ومن الجدير بالذكر أن الرجل الذي عين فيما بعد قائداً لقلعة يسوع ، كان قد ولد بها ، وهو محمد بن عبد الله بن مبارك بكشويني . وكان والده عبد الله بكشويني قد هاجر إليها من حضر موت وعين قائداً للقلعة في عهد السيد سعيد . وبعد تعيينه أخلص في خدمة مصالح السلطان في الفترة الأولى ، ولكنه عاد فتمرد على السلطان ، مما أدى إلى عزله وأسرره وإرساله إلى زنجبار مع عائلته . ثم أبعده إلى المكلا . ومن هناك ذهب إلى مدغشقر حيث تزوج من السلطانة بيسيثا بيبيرا - فوم ، التي أنجبت له سبعة أبناء . وفي عام ١٨٨٨ عاد إلى زنجبار حيث بقي هناك حتى وفاته عام ١٨٩٤ .

وهناك جزيرتان أخريان انضمتا إلى مملكة ضد سيادة سلاطين عمان ، وهما لامو وباقى . وسوف نناقش أمر هاتين الجزيرتين على حدة ،

لامو وباني

تقع جزيرتا لامو وباني على الناحية الشرقية من ساحل كينيا ، ولطالما
تقاتلت لامو ، وهي الأكبر حجما ، مع بائي ، وهي الأقوى ، وقد
نشبت معارك عديدة بين الجزيرتين ، وكان حاكم بائي يدعى «بوانامو»
وقد قرر أن يشن هجوما على لامو للحصول على الأسلحة التي خلفها
البرتغاليون ، وكانت مدفونة في لامو ، إلا أنه فشل في تحقيق هدفه ،
لأن قواربه قد غرقت قبل وصولها إلى شواطئ لامو .

وقد استولى حاكم بائي على لامو في السنوات الأولى من القرن التاسع
عشر ، ولكنه لم يلق إلا سحق شعب لامو ، وقد قرر أحد سلاطين بائي ،
ويدعى «بوانا فومو» بناء قلعة على البحر في لامو لحماية البلاد ،
ولكنه مات قبل أن يكتمل الطابق الأول منها ، ونشأت بعد وفاته مشكلة
اختيار خليفته من بين أولاده الخمسين .

واستغل حاكم ممباسا المزروعى الفرصة فجاء إلى لامو ليعمل على
اختيار أحد أزواج بنات السلطان الميت لكي يتولى الحكم ، فازعج شعب
لامو من هذا التدخل ، وخافوا من التعاون مع شعب بائي ، لمقاومة هذا التدخل ،
ورضوا ، وهم كارهون ، بتسليم الجزيرتين إلى المزروعى ، مستهدين
إثارة شعب بائي ليشور ضد أصدقائه المزاريع ، فتنشب الحرب بين بائي
وممباسا ، ونجح شعب لامو في ذلك ، غير أن الشعب في بائي عقد اتفاقا
مع المزروعى ، يقضى بأن يتظاهر المزروعى بأنه على خلاف مع بائي
فيحاولون الشرب من شعب لامو ، وبهذه الطريقة يمكنهم أن يضعوا
(م ٦ - عمان وشرق أفريقيا)

أيديهم على قلعتها ، ويحضرون قواتهم إليها ، ويدفعون أصدقاتهم في باني
إلى مهاجمة لامو .

وكانت فرصة ذهبية لرئيس قبائل المزاريع عندما دعاه سكان لامو
لمساعدتهم ، وفي عام ١٨١٣ توجه إلى لامو ، واستطاع إقناع أهلها بضرورة
استكمال بناء القلعة التي كان السلطان فومو مادي قد بدأ في بنائها ، استعدادا
للهجوم على باني .

غير أن واحداً من شخصيات لامو ، من كبار السن ، لاحظ أن شيئاً
ما يجري بين رئيس المزاريع وبين ملك باني ، فوضع هذا الرجل خطة معينة
يستكشف بها حقيقة ما يحدث ، وبعث بأحد الصيادين ، يحمل رسالة إلى
رئيس المزاريع ، زعم أنها من ملك باني ، يسأله فيها عن رأيه فيما يتعلق بالخطة
التي اتفقوا عليها .

ووقع رئيس المزاريع في الفخ ، وكتب الرد على الرسالة ، وسلمه إلى
الصياد ، الذي عاد به في وقت متأخر من الليل .

وقد تضمن الرد معلومات عن القلعة ، وأنه سوف يحدد موعد الهجوم
بمجرد أن تستكمل القلعة بناءها .

وفي صباح اليوم التالي ذهب الرجل ، وهو من كبار رجال لامو ، إلى
موقع البناء ، وقدم تحيته إلى رئيس المزاريع ، ثم بعد هنية أطلعه - في أدب -
على الخطاب ، فهاج المزروعى ، لأن الخطاب أظهر له ضياعه ، وهرع إلى
الشاطئ نحو قاربه ، وفي أعقاب رجال لامو ، يريدون قتله .

ولكن الرجل أقنعهم بضرورة المحافظة عليه وعدم إصابته بسوء طالما
أنه ضيف عليهم ، وعاد المزروعى إلى باني ، وأبلغ ملكها بما حدث .

فجرى بسرعة إعداد مجموعات حرب من جنود المزاريع ومن جميع
قوات باني .

وصمم شعب لامو على مواجهة الأعداء ، ووقعت بين الفريقين معركة في شمال شرق لامو ، وكان القتال بالغ العنف ، وانتصر شعب لامو وتغلب على أعدائه ، وأما الذين هربوا فقد عادوا إلى باقي .

وقد كانت هزيمة المزاريع شؤماً عليهم في أنحاء الساحل الشمالى ، ففي خلال السنوات القليلة اللاحقة خسروا سيطرتهم على ممباسا ، وقد كانت لهم معقلا .

وبعد هزيمة المزاريع في شيلا جذبت لامو انتباه سلطان مسقط ، الذى طالما ساءه تمرد المزاريع في ممباسا .

فقام بإرسال قوة من جيشه وإرسال حاكم من قبيلة ليتولى حراسة قلعة لامو ، وقد أتاح ذلك القرار الفرصة لتدقق التجار العرب الذين شعروا بأن الاستقرار السياسى سوف يعزز من فرص الرخاء .

وقد جلب أولئك التجار معهم رؤوس أموالهم وخبراتهم التجارية فجعلوا من مدينة لامو لعبة للتجارة الدولية ، وبدأت السفن العمانية الكبيرة والفارسية تندفق على الميناء في فصل الرياح الموسمية الشمالية الشرقية لتقوم بتقل السلع بأنواعها الأخرى ، وخلال الربع الثانى من القرن التاسع عشر ، أصبحت لامو أهم مدن ساحل شرقى إفريقية بعد ممباسا .

وفي أعقاب انتهاء القرن التاسع عشر ، عندما أدى التسابق الأوروبى على إفريقية ، إلى تقسيم ممتلكات سلطان زنجبار ، وإنشاء محمية بريطانية في شرقى إفريقية ، فقد ظهر عدد من المغامرين البريطانيين في المنطقة .

وهذه المواقف كانت نتيجة ذلك . تدهور لامو ، وأصبح زخاؤها جزءاً من الماضى .

٢ - باقى :

باقى جزيرة أخرى فى أرخبيل لامو استوطنها العرب العمانيون ، ويعتقد أن باقى قد أنشأها المهاجرون من عمان فى القرن الثامن عشر ، ثم قامت حائلة النهانى بتطويرها وقد جاءت من عمان عام ١٢٠٤ ، وقيل أن باقى كانت من الأقطار القوية فى القرن الرابع عشر ، وسيطرت على معظم المدن الساحلية فى شرق إفريقيا ، غير أن آخر الكشوف الأثرية ، تشكك فى صحة ما سبق أن ورد ذكره عن هذه الجزيرة ، وتشير تلك الكشوف إلى أن مدينة باقى قد تأسست فى القرن الرابع عشر لكنها لم تتطور إلى دولة قوية تنعم بالثراء إلا فى القرن السادس عشر .

وفى القرن الثامن عشر غدت باقى دولة قوية ومتقدمة جدا فى مجال الفنون الجميلة ، وسمى هذا العصر بالعصر الذهبى لباقى .

فى ذلك الوقت بالذات كان يمكن رؤية المنازل الأنيقة البناء ، وأصناف الجواهر والآلات الموسيقية المصنوعة محليا والتي كانت تسمى «سيوا» والمطعمة بالفضة ، ونسخ القرآن المخطوطة باليد ، ودواوين الشعر المؤثرة ، ومعظمها من نظم شاعرات ، وقد تدهورت حضارة باقى فى أواخر القرن الثامن عشر نتيجة للنزاع المستمر مع الجزر المجاورة لها .

٣ - سيو :

سيو مدينة تقع وسط جزيرة باقى ، ولا يعرف بالتحديد تاريخ إنشائها لعدم القيام بعمليات مسح أثرى شاملة بها ، ومع ذلك يعتقد أن تاريخ نشأتها يرجع إلى القرن الثالث عشر ، وكانت تعتبر أكبر مدن الجزيرة حوالى عام ١٦٠٠ .

وقد وقعت معركة حنيقة فى سيو فى القرن التاسع عشر ، والمعلومة الوحيدة عن تلك المعركة ما ورد فى مخطوط بعنوان « المغامرات البحرية

للأمير حمد ، وهو عالم ينشر . وقد ذكر كريسبي مالك كاستر ، وإليزموث
مارتا نر في كتابهما « البحث في الماضي » ، « أنه في عام ١٨٤٣ قرر شيخ
يأتي الحديد ، ويوانا ماتاكا ، وشيخ سيو ، الخروج عن سيادة السيد سعيد
سلطان عمان وزنجبار . فأرسل السيد سعيد جيشاً من ألفي رجل من العرب
ومن البلوش ، وبعض المقاتلين من لامو ، وأسندت قيادته إلى القائد
المشهور السيد حمد بن أحمد البوسعيدى ، المعروف بالأمير حمد ، الذى
كان من قبل والياً على بندر عباس (فى فارس) عام ١٨٢٤ ، وقد حقق
ذلك القائد انتصارات فى معاركه ضد باقى ويمينا ومباشنة . ولكن النصر
لم يحالفه فى تلك المعركة . فقد نزل فى فازا فى أوائل يناير ١٨٤٤ ، وبينما
كان يتحرك فى اتجاه سيو فى السادس من يناير ، وقع رجاله فى كمين
وأرغموا على التقهقر إلى فازا . وبعد ثلاثة أسابيع من الأعمال غير الحاسمة
أبحر بعيداً عن سيو وأمر بإقامة قلعة فى سيو يحرسها مائة من الجنود البلوش
العمانيين .

« وفى ديسمبر ١٨٤٤ تم حشد تسعمائة رجل فى مسقط لمقاتلة سيو ،
وأحضروا إلى زنجبار حيث تم تعزيزهم بمزيد من المقاتلين . ووصلوا مرة
أخرى إلى فازا فى ٤ يناير ١٨٤٥ . وعسكر السيد سعيد وقائده جيشه
الأمير حمد خارج فازا فى مكان يسمى كيشوكا فى . وفى ٦ يناير تقدم
الأمير حمد نحو سيو ، بينما صدر إليه أمر من السيد سعيد ببناء خمسة
حصون دفاعية فى الطريق إلى سيو ، وبدلاً من أن يقوم ببنائها فإنه أنشأ
حصناً واحداً فى منتصف الطريق إلى سيو فى مكوبانى . ثم هاجم سيو وأرغم
سكانها على التقهقر وراء أسوار المدينة . لكن سكان سيو تمكنوا من منع
قوات السلطان من التقدم ، بقصفها من مدافعهم من خلال فجوات فى السور .
وبدلاً من أن يواصل الأمير حمد القتال ، فإنه قرر العودة بقليل من
جنوده إلى مكوبانى لإحضار تعزيزات جديدة . وكان ذلك خطأ فادحاً منه .
فقد استطاع خمسمائة مقاتل التسلسل من سيو ، بعد أن سلكوا طريقاً أقصر إلى
مكوبانى .

وهناك اعترض أولئك المقاتلون الأمير حمد الذي لم يكن معه سوى ما يتراوح بين ١٨ و ٢٢ رجلا معظمهم عزل من البنادق ولا يحملون إلا السيوف والخناجر . وحتى يمنع قائد قوات سيو حمادى نجوما وصول إمدادات للقائد العماني ، فإنه أمر رجاله بعدم استخدام الأسلحة النارية حتى لا تحدث صوتا ، وأنما يقتلون الأمير حمد بالرمح السامة .

وبعد إطلاق ١٨ رمحا نحوه ، استطاع أحد الرماة أن يطلق عليه رمحين متتابعين أصابه الثاني في ركبته . ثم اندفع رجلان بسيفيهما لقتل الأمير المصاب . لكن الأمير حمد استطاع تمزيقهما . وأخير تلقى الأمير عدداً آخر من الرماح السامة .

« وعندما وجد السيد سعيد أن قائد قواته قد قتل ، أنهى حصاره لسيو وانسحبت القوات وهي في حالة اضطراب بحيث تمكن جنود العدو من ذبح الكثيرين منهم، بينما ألقى آخرون بأنفسهم في المستنقعات القاتلة . وتم دفن جثمان الأمير حمد قرب فازا . وقد توفي عدد كبير من جنوده أثناء بكائهم على قائدهم الكبير . وقد قام السيد سعيد وهو في حالة صدمة ، بلم شتات بقايا جيشه وأبحر عائدا إلى زنجبار . ولم ينس بيت شفة إلى أن وصل إلى ماندا .

وبعد ذلك بوقت قصير سمع السيد سعيد أن شيخ ماتاكا قد توفي ، ومن ثم قرر التفاوض بدلا من القيام بمحاولة أخرى لأخذ سيو بالقوة . فقد اعتقد السيد سعيد ، انه مادام شيخ ماتاكا - الذي كان خصمه الرئيسي - قد مات ، فإن قيامه بشن هجوم ، سوف ينسف مكانته ، لأنه لو كسب المعركة فلن يشيد به أحد ، أما إذا خسرها فسوف يكون ذلك مشينا له . وقبل وفاة السيد سعيد شدد في نصيح لابنه السيد ماجد بأن يتدبر كثيرا ما حصل في سيو .

وقد تفاوض السيد سعيد مع شيخ سيو الحدود وعسكرت قواته من

جديد في القلعة . وفي عام ١٨٦٣ أخرج الشيخ محمد ابن ماتاكا قوات السلطان من قلعة سيو ، وتحالف مع أحمد سيمبا سلطان باتي . ورد السيد ماجد سلطان زنجبار على ذلك بارسال أسطول مسلح لمهاجمة سيو . وقامت قوات السيد ماجد بإزالة قوات في باتي وفازا ، وفرضت حصارا على سيو استمر ستة شهور . وخلال هذه الفترة كان سكان باتي قد أكلوا كل ما لديهم من طعام . وبدأوا يعيشون على عصير جوز الهند والماء . وعندما وجد الشيخ محمد أنه لا يوجد أمل في النصر وأنه مهدد هو ورجاله بالفناء جوعا طلب هدنة .

وقد وافق السيد ماجد على ذلك بشرط إعادة بناء قلعة سيو لتصبح مقرا للوالي . وقد قبل الشيخ محمد الشرط وأعيد بناء القلعة .

وقد وقع خلاف جديد بين السيد ماجد وبين الشيخ محمد عندما قام الأخير بإنشاء حظيرة لبناء سفينة شراعية من طراز الداو في منطقة مواجهة لمقر الوالي واستاء الوالي جدا من ذلك التصرف ، فإذ كان من الشيخ محمد إلا أنه أمر أتباعه بهدم القلعة . ورغم ما حدث فإن غالبية السكان طلبوا من الشيخ محمد تقديم اعتذار للسيد ماجد . ونزولا على طلبهم بعث الشيخ محمد بالاعتذار وأعيد بناء القلعة ، غير أن السيد ماجد سرعان ما انتقم من الشيخ المذكور ، فعندما توجه الشيخ محمد مع زعماء سيو إلى زنجبار لتقديم فروض الولاء للسلطان . أمر السيد ماجد باعتقاله والزج به في قلعة يسوع في ممباسا مع أوامر بوضع القيود في يديه وبألا يفرج عنه إلا بأمر منه . ولكن ذلك الأمر لم يصدر وامضى الشيخ محمد بقية حياته في قلعة يسوع ، وفرض السيد ماجد سلطان زنجبار سلطته الكاملة على سيو في النهاية .

وفي عام ١٨٢٣ وبعد عشر سنوات من السلام أصبحت سيو أكثر مدن الجزيرة سكانا وثروة ، ونصب حاكم عربي في القلعة ، وقد نجح في إحلال السلام بين مختلف الطوائف في الجزيرة .

وكان في المدينة ستة من التجار الهنود . واحد منهم من البهرة والخمسة الآخرون من الهندوس ، وكانوا يمارسون النشاط التجاري ، وكان مزارعو سيو يمارسون نمطا غير معتاد في الزراعة ، لكنه أسلوب معروف في مسقط . ويقوم على حفر الآبار حول مشارف المدينة لرى المزارع ، وجاب الجمال لاستخدامها كحيوانات عمل في استخراج المياه بدل الثيران التي لا تقوى على هذا العمل بكفاية .

وكان التبغ (تابو) أكثر المحاصيل الزراعية قيمة ويصدر إلى معظم المدن الساحلية ، وكذلك جوز الهند والبلح ، وأنواع أخرى من الفواكه الاستوائية .

والتبغ في فترة السبعينيات - القرن التاسع عشر من أكثر المحصولات الزراعية إنتاجا في المناطق الساحلية ، وعندما تتعلم زراعته أثناء فترة الرياح الموسمية الشمالية الشرقية فإن سكان سيو يصعدون محصولهم إليها .

وكان البلح أهم محاصيل سيو ، وتعتبر زراعته مقصورة على سيو دون غيرها من مناطق الساحل لعدم توافر موارد كافية من مياه الري ، والبلح هو أهم محاصيل سيو .

وقد ساعد نظام الري المتبع في سيو على احتفاظ جذور النخيل بالطرية الدائمة ، وكانت هناك مئات من أشجار النخيل تنتج نوعاً طائياً الجوده من البلح .

ولما ألغى الرق انهار الاقتصاد الزراعي ، فانهار بذلك رخاء سيو ، مما اضطر الناس إلى مغادرة المدينة للبحث عن عمل في ممباسة .

وكل ما بقي الآن من هذه المدينة في جزيرة باتي هو القلعة القديمة التي أنشأها السيد سعيد بن سلطان ، ولا يبقى من مئات أشجار النخيل سوى واحدة أو اثنتين .

حملة مكافحة الرق

تعتبر مناقشة تجارة الرقيق من المسائل بالغة الحساسية ، ولأنه من الصعب إقناع أبناء الدين تأثروا فيها بشكل مباشر بتقبل واقع تلك الفترة التي ازدهرت فيها تجارة الرقيق فالذين نشطت حملات مكافحة الرق من أجلهم لم يتمكنوا من تفهم أن الدين قاموا بهذه الحملات لم يكن هدفهم إنسانياً بحتاً ، بل أن الدوافع السياسية هي التي كانت تحركهم .

والقد نجحت هذه الدوافع فحققت للأوربيين أهدافهم السياسية في شرق إفريقيا ، وزرعت الكراهية العنصرية والدينية في عقول الناس إلى الحد الذي يجعل شخصاً يكره شخصاً آخر مجرد أن جلده يحمل هذا اللون أو ذلك ، أو أنه يعتقد هذا الدين أو ذاك .

وفي الحقيقة ، فإن تجارة الرق كانت عملاً بشعاً ، شارك فيها غالبية الذين زاروا إفريقيا - إن لم يكونوا كلهم - وتورط فيها كثير من الناس ، بما في ذلك الإفريقيون أنفسهم ، بدءاً من إمبراطورية الزنج و نهاية بوصول العرب ، وحتى بوصول الدول الأوروبية إلى شرق إفريقيا ، ولقد كان هناك دافع مشترك في تلك الأيام وهو الحصول على قوة عاملة رخيصة ، ومع ذلك فقد كانت تلك التجارة سبباً في جبن الحضارة نفسها ، أكثر مما كانت شيئاً مشيناً للدين زاولوها متهمين المبادئ الإنسانية ،

ورغم أن البرتغاليين والفرنسيين والأمميين قد شاركوا في تجارة الرقيق ، فإن العرب هم الذين انضمت عليهم الانتقادات . وقد ظهر العرب على مسرح هذه التجارة في القرن التاسع عشر .

وعندما اتخذت بريطانيا خطواتها المبدئية ضد تجارة الرقيق في شرق

إفريقية، فإن ذلك حدث في عهد السيد سعيد بن سلطان . ففى عام ١٨٢٢ وقع السيد سعيد إتفاقية مع بريطانيا تعهد فيها بتحريم بيع الرقيق إلى أى دولة مسيحية ، كما نصت الاتفاقية على وجوب إطلاق سراح جميع العبيد الذين يملكهم الرعايا البريطانيون المقيمون فى المناطق الخاضعة السيد سعيد سلطان زنجبار ، وقد حاول الرعايا البريطانيون والهنود أصحاب الرقيق أن يلتصوا من السلطان إعفاءهم من هذا الشرط لكنهم لم يفلحوا فى مسعاهم . وقد نتج عن إلغاء هذا الوضع السائد انهيار الاقتصاد الزراعى . وحدث ما كان متوقعا . حيث تحول العبيد الذين تحرروا إلى السرقة للبلطونهم عندما عجزوا عن العثور على ما يسد رمقهم ، وقد كان المفهوم فى ذلك الوقت أن قانون تحريم الرقيق إنما يقتصر على رعايا بريطانيا المقيمين فى ممتلكات السيد سعيد وحدهم ، وعندما رفض رعايا السيد سعيد تطبيق هذه الإجراءات على أنفسهم ، فقد كان على بريطانيا أن تتدخل لتفرض أوامرها على رعاياها ، وإن الوضع بالنسبة للرقيق فى البلاد الإسلامية كان مختلفا عنه فى أمريكا الشمالية ، ففى الدول الإسلامية كان للعبيد ساعات عمل محدودة ، وكان يسمح لهم بالعمل لحسابهم الخاص ، يومين على الأقل كل أسبوع ، بالإضافة الى منحهم فترات راحة .

وكان هناك تنافس بين المسلمين فى منح الحرية لعبيدهم ، وكان مملا يهخر به العبد أن يعلن أنه مملوك لشخص مميز . ولكى نفهم بشاعة الرق ، ينبغي معرفة الفرق بين تجارة العبيد وبين امتلاكهم ، فالأولى تتنافى تماما مع الأحاسيس الإنسانية . ولقد كان من عادة تجار الرقيق أن يتجولوا فى غابات إفريقيا لاصطياد العبيد ، وكانوا يقومون - بمساعدة بعض الإفريقيين - بنزع الضحايا من أكواخهم وإرسالهم إلى الساحل تحت أقصى الظروف . وكثيرون منهم كانوا يموتون قبل وصولهم إلى الجهة المتجهين إليها ، بسبب الجوع والعطش والتعب . وقد يتساءل المرء ! ألم يكن تجار العبيد أنفسهم يقاسون من نفس المشكلات ، وهم يقودون قوافل العبيد من الداخل إلى الشواطئ ؟ . أننا إذا

أخذنا في اعتبارنا المطمح الرئيسي لتاجر الرق في تحقيق أكبر مكسب من بضاعته ، فإننا نجد من المنطقي أن يكون مهتماً بالوصول بعبيده إلى السوق أحياء وفي صحة جيدة ، حتى يحصل مقابلهم على أفضل سعر . فلقد كان الرقيق رأس مال التاجر ، وإذا عذبه حتى الموت فإنه يخسر رأس ماله .

وعندما بدأت حملة مكافحة الرقيق فإنها لم تبدأ كمسألة إنسانية ، ولكننا بدأت بدوافع سياسية . ولقد حرص الكتاب الذين كتبوا عن تجارة العبيد وقمعها ؛ على أن يغرّسوا بذور الكراهية . حقول قرائهم ، وبذلك أفرزت تلك البذور خصاها المقيت ، وظلت تلك الكراهية سائدة منذ أن كانت تجارة الرق في أوج ازدهارها حتى يومنا هذا ، حيث أصبحت مجرد قصة من قصص الماضي .

وفي مجال المقارنة ، فإن التجار الأوربيين كانوا أكثر تجرداً من الإنسانية ، من نظرائهم العرب . فلم يكن العرب يبيعون عبيدهم في الأسواق مع أثاثهم عندما كانوا يغادرون مدينة ما إلى أخرى مثلاً . كان يفعل الأوربيون .

وقد كتب الرحالة الأوربي ريتشارد في عام ١٨٨٠ بعد زيارته لزنجبار يقول ، بأن العبيد هنا لا يعانون من الجوع أو التعذيب أو الحرمان ، لأنه لو بلغت السلطان أنباء عن سوء معاملة السادة لعبيدهم فإنه يعطى لهؤلاء العبيد حريتهم ويحميهم من انتقام سادتهم السابقين ؛ ومضى ريتشارد يشرح أوضاع العبيد كما شاهدها ، مؤكداً بأنها أفضل حالاً من ألوف العمال في بلاده .

ويرجع إلى السيد سعيد فضل كبير في مساعدة بريطانيا مساعدة كبيرة في محاولاتها تحريم تجارة الرقيق ، رغم أن المعاهدات التي وقعها معها لم تكن موضع ترحيب من شعبه ، وفضلاً عن ذلك فإنه كان يشكل خسارة

اقتصادية ومالية طائلة كانت تعود عليه من الرسوم المقررة في ممتلكاته على العبيد الزارعين ، وقد كانت هذه الرسوم مصدرراً رئيسياً للدخل .

وبعد وفاة السيد سعيد استقبل ابنه السيد برغش كثيراً من المبعوثين البريطانيين الذين جاءوا كدعاة تشديد للحملة ضد الرق ، ومن بين هؤلاء السير بارتل فرير الذي نجح بعد عدة محاولات في شراء عدد من العبيد ، ومنحهم الحرية ، وبعد ذلك حصل على قطعة أرض في ممباسا ، وأقام عليها مستعمرة يعمل فيها العبيد الذي حرروا من ساداتهم ، وسمى هـلـا المكان باسم (فرير تاون) أي مدينة فرير ، وما زال يحمل نفس الاسم حتى اليوم .

وكان الدكتور كيرك يمثل فرير ، ثم أصبح بعد ذلك يحمل لقب سير ، وهو السير جود كيرك القنصل البريطاني في زنجبار ، وقد وصل به الأمر إلى أنه هدد السيد برغش باستخدام القوة إذا لم يوافق على توقيع معاهدة أشد صرامة ، وقد وقع السيد برغش على تلك المعاهدة عام ١٨٧٣ . وأغلق السلطان سوق العبيد في زنجبار .

وفي سبتمبر ١٨٧٩ وقع السيد خليفة — الذي خلف السيد برغش — اتفاقاً مع بريطانيا ، يقضى بأن كل الذين يدخلون أراضي السلطان ابتداء من أول نوفمبر من ذلك العام يعتبرون أحراراً ، كما أن الأطفال الذين يولدون بعد أول يناير ١٨٨٠ ، يعتبرون أحراراً أيضاً .

وأتخذت الخطوة النهائية نحو إلغاء الرق في زنجبار وبمبا عام ١٨٩٧ ومن الجدير بالذكر أنه لم يكن هناك اندفاع من جانب العبيد لنيل حريتهم ، ففي أواخر يونيو من ذلك العام ، أعلن عن حصول ١٢٠ شخصاً فقط على حريتهم في زنجبار وبمبا . فقد كان كثير من العبيد سعداء وراضون عن أوضاعهم لدى ساداتهم . وهنا يتضح الفرق بين الإنجاز في الرقيق وبين امتلاك الرقيق ، فلقد كان الجانب البشع في الرق مرتبط بعملية نقل العبيد .

من الداخل إلى الشاطئ ، وعبر الرحلة إلى زنجبار ، لكن حسن معاملة الرقيق لم تكن تبدأ إلا بعد وصولهم إلى الجهة النهائية . وكثيرون من العرب كانوا يتصفون بالرحمة ؛ ولذلك عادة ما كان العبد في زنجبار أكثر أماناً وراحة مما كان في قرينه بالداخل . وكان أصحاب الرقيق يهبونهم بعض الأراضي لاستصلاحها وزراعتها لأنفسهم ، أما الذين عملوا كخادم في البيوت فقد كانوا مرتبطين بساتيمهم ، وكانوا يرفضون منحهم حريتهم . وتدرجياً بدأ العبيد يطالبون بحريتهم ، إلى أن اختفى الرق تماماً .

11

1. The first part of the document is a list of the names of the persons who were present at the meeting. The names are listed in alphabetical order.

2. The second part of the document is a list of the topics that were discussed at the meeting. The topics are listed in alphabetical order.

3. The third part of the document is a list of the actions that were taken at the meeting. The actions are listed in alphabetical order.

4. The fourth part of the document is a list of the decisions that were made at the meeting. The decisions are listed in alphabetical order.

5. The fifth part of the document is a list of the recommendations that were made at the meeting. The recommendations are listed in alphabetical order.

الإسلام والمسيحية في شرق أفريقيا

رأينا في الفصل السابق كيف أقام العرب والفرس مستوطنات في شرق إفريقيا ، من مقدشيو شمالاً إلى كيلوا في الجنوب ، ومن الحدير بالذكر أن أولئك المهاجرين لم يذهبوا إلى شرق إفريقيا كمبشرين بالإسلام هدفهم هو تحويل الإفريقيين إلى الدين الإسلامي . فقد كان الدافع هو العثور على ملجأ آمن - من ناحية - والتجارة من ناحية أخرى . وكان اعتناق السكان الوطنيين للدين الإسلامي نتيجة للعلاقة الوثيقة التي نشأت بينهم وبين ضيوفهم . كذلك انتشر الإسلام في إفريقيا بحكم الزواج والامتزاج بين الطرفين ، والذي بدأ منذ قرون واستمر في القرن الثامن عشر مع الاستيطان الدائم للمسلمين القادمين من الجزيرة العربية وشرار .

ويمكن القول أن دخول الإسلام قد مهدت له تلك الروابط الأخوية بين الشيرازيين والعرب من ناحية ، وبين سكان شرق إفريقيا من ناحية أخرى . وهي روابط إجتماعية وثقافية قامت منذ وقت طويل

ومن جانب آخر فإن المسيحية دخلت شرق إفريقيا من خلال فتح هذه المناطق على يد الأوروبيين ، ويرتبط نشاط البعثات التبشيرية المسيحية بمختلف صورها بالقصة الكاملة لفتح إفريقيا الاستوائية وتطورها خلال القرن التاسع عشر ، كما أن جزءاً كبيراً من الكشوف الأولى للمناطق الداخلية من إفريقيا قد تم خلال القرن التاسع عشر على يد مبشرين مسيحيين ، وإلى جهودهم يعود الفضل في وقف تجارة الرقيق البشعة .

وبدون الحديث عن أعمال المسيحيين يصبح الحديث عن تاريخ ساحل شرق إفريقيا غير كامل . وقد سهل سلطان زنجبار - رغم أنه مسلم -

عمل تلك البعثات المسيحية ، وهذه هي الديمقراطية الكاملة في الإسلام ، فالإسلام لا يتدخل في شؤون أية ديانة أخرى ، بل العكس على فهو يحترم الديانات الأخرى ، والقرآن يقول : لا إكراه في الدين . ومن هذا المنطلق عرض السلطان كافة المساعدات والتسهيلات للبعثات المسيحية عندما اتصلت به ، وبصرف النظر عما إذا كان مصيبا في ذلك أم لا ، فإنه قد تصرف بحسن نية وبالتزام كامل بمبادئ الإسلام .

وبعثات التبشير الرئيسية التي عرفت بنشاطها الزائد في شرق إفريقيا هي :

(١) جمعية التبشير الكنسية : وهي جمعية توفد رجالا إلى هذه المناطق ، وتأسست عام ١٧٩٩ للعمل في « إفريقيا والشرق » . وفي عام ١٨٤٠ أرسل الدكتور كراميف إلى الحبشة في بعثة تقصى الحقائق ولمعرفة ما إذا من الممكن التبشير بالمسيحية في هذه البلاد ، وقد أقرنته مشاهداته بعدم نجاح التبشير هناك في ذلك الحين .

وفي عام ١٨٤٤ غادر الحبشة وذهب إلى زنجبار حيث أكرم القنصل البريطاني همرتون وقادته ، وقدمه للسيد سعيد ، وقد شرح الدكتور كراميف للسلطان ، أنه يرغب في الاستيطان في ممباسا من أجل تحويل السكان إلى المسيحية ، فسمح له السيد سعيد بالقيام بذلك ، وسلمة رسالة توصية للحاكم العربي للساحل .

وأبحر الدكتور كراميف إلى ممباسا في مايو سنة ١٨٤٤ ، وبدأ عمله بين قبائل نيككا ، ولم تكن البيئة المحلية مهيأة له ولعائلته تماما ، فعلا بل بضعة شهور من إقامته هناك فقد زوجته وطفله ، بينما أصيب هو بمرض خطير ، ولما ماتت زوجته حضر حاكم ممباسا وغيره من المسلمين السواحليين جنازتها لإكراما له .

ولم تشب تلك الأحداث من دمه : واستمر في عمله . ولحق به عام ١٨٤٦ صديقه القس جون ريجان ، وأقاما مقرا للبعثة في قرية راباي ، وما زالت كنيسة راباي تستخدم حتى اليوم .

٢ - البعثة الجامعية لوسط إفريقية : وقد تأسست هذه البعثة عام ١٨٥٦ نتيجة لنداء وجهه دكتور ليفنجستون إلى جاءته أو كسفورد وكامبريدج ، وفي البداية أوصت البعثة بالبداية في عمل نشط عام ١٨٦١ في إقليم نهر شيرى ، بقيادة الأسقف ماكنزى ، ولم يكن اختيار المكان مناسباً بسبب الطبيعة القاسية هناك ، حيث مات الأسقف ماكنزى ومعظم مساعديه في العام الأول من بدء نشاطهم ، وقرر خلفه الأسقف توزر الذى وصل إلى نهر شيرى عام ١٨٦٣ ، وقف العمل هناك لفترة ، ونقل المقر إلى زنجبار بعد أن تأكد من أن مركز زنجبار المتوسط على الساحل الشرى يمكن أن يجعل منها نقطة للانطلاق لمزيد من العمل فى الداخل .

ووصل الأسقف توزر بصحبة الدكتور ستير إلى زنجبار فى أغسطس ١٨٦٤ ، وبضعة أيام قضياها ضيفين على القنصل البريطانى ، اتفق مع السلطان السيد ماجد على تزويد البعثة بمبنى كبير مواجه للبحر فى شانجانى فى وسط المدينة .

وزود السلطان الأسقف توزر بخمسة من الصبية الذين كانوا عبيداً وحرروا ، ليساعدوه فى عمله ، وبهؤلاء الصبية وغيرهم ممن انضموا إليه بعد ذلك بدأ توزر عمله بتعليمهم بحيث أصبحوا فيما بعد مدرسين وقساوسة .

وفى عام ١٨٦٥ اشترى الأسقف توزر مقاطعة فى كيونيجانى ، على مسافة لا تبعد كثيراً عن مدينة زنجبار ، وبعد ذلك بعدة سنوات اشترى قطعة أخرى من الأرض فى مبوينى ، على مسافة أربعة أميال إلى الجنوب من المدينة واستخدمها لإقامة الوافدين الجدد إلى البعثة ، ولم يمض وقت (م ٧ - عمان وشرق إفريقية)

طويل حتى أنشئت قرية في هذا الموقع للعبيد الذين تم تحريرهم ، ومن هذا المكان انتشرت المسيحية إلى الداخل حتى وسط إفريقية .

٣ - بعثة الروح : وتبع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، وقد أسسها دكتور أماند مانيويذت ، وأستشف سانت دينيس ، الذي أرسل نائبه العام إلى زنجبار عام ١٨٦٠ ، وعند وصوله إلى زنجبار زار هو ومرافقوه السلطان السيد ماجد وأبلغوه أنهم سيقومون بأعمال التبريض للمواطنين النصارى وتعليمهم وقد لقي من السيد ماجد ترحيبا ودبا ، وأعرب لهم عن أمله في أن يكون في عملهم بركة لشعبه .

وقد أنشأت البعثات مستشفيات ، واحدة للبحارة الأوربيين ، والآخرى للإفريقيين ومدرسة أولية ، ومدرسة صناعية ، ومن هنا انتشر عملهم إلى الداخل .

٤ - بعثة الأصدقاء الصناعية - ييمبا : وكان اهتمامها منصبا عن مكافحة الرق وتجارة الرق . وسميت بهذا الاسم ، لأنها آمنت بأن أفضل طريق للتخلص من الرق هو تحويل العبيد إلى مواطنين نافعين يزاوون أعمالا مفيدة ، وكان رائد هذه البعثة هو قيودور بيرت الذي وصل إلى ييمبا عام ١٨٩٧ ، قبل صدور مرسوم إلغاء الوضع القانوني للرق ببضعة شهور .

ومن الجدير بالذكر أن المساعدة التي قدمها سلطان زنجبار للبعثات المسيحية كانت كبيرة للغاية ، ومع ذلك فقد أعطيت للإسلام في مرحلة لاحقة صورة تظهره بمظهر أعداء المصالح الأوربية في إفريقية . حتى أنهم كانوا يربطون العرب بالرق وكل أنواع الاستغلال .

زنجبار في فترة الحماية البريطانية

بدأت نقطة التحول في تاريخ زنجبار في ٤ نوفمبر ١٨٩٠ عندما وضعت هي وبيمبا تحت الحماية البريطانية . وكان ذلك يعني ببساطة وضع حكومتها وإدارتها مستقبلا في أيدي مسئولين بريطانيين ، رغم أن الجزيرتين ظلتا تحت حكم السلطان . لكن السلطان لم يعد مستقلا ، أو يتمتع بسلطات واسعة ، وإنما مجرد حاكم اسمي للجزيرتين . ومن ثم سيطرت تماما في أيدي آخرين ، إمبراطورية شرق إفريقيا المتحدة والظموحة التي أراد السيد سعيد بن سلطان بناءها . وكان ذلك نتيجة للتسابق الأوربي على إفريقيا ، وقد اتهم بعض الكتاب خلفاء السيد سعيد بالعجز عن إقامة حكم فعال وقوى في المناطق على الساحل الشرقي لإفريقية ، وكان ذلك سببا في سقوط إمبراطوريتهم في أيدي الغير .

وفي عام ١٩١٣ وبعد عامين من تولي السيد خليفة بن حارب ، ألغى مكتب الوزير الأول للسلطان والتمتعصل العام ، وأقيم مكتبان جديدان مكانهما للمقيم البريطانيين والسكرتير الأول . وفي نفس الوقت أنشئ مجلس محمية زنجبار برئاسة السيد خليفة ، والمقيم البريطاني نائبا للرئيس ، وعضوية ثلاثة أعضاء رسميين ، وأربعة غير رسميين لتمثيل مختلف السكان .

وفي ٥ سبتمبر ١٩٢٥ ألغى منصب المندوب السامي في زنجبار الذي يشغله حاكم محمية شرق إفريقيا ، وأصبح المقيم البريطاني مسئولا مسئولية مباشرة ، عن المكتب . وحلت محل مجلس المحمية الذي أنشئ عام ١٩١٤ ، مجالس تنفيذية وتشريعية ، بدأت عملها في أول مارس ١٩٢٦ ، وكان يرأس المجلس التنفيذي ، المقيم البريطاني ، مع ثلاثة

أعضاء مسئولين سابقين ، وستة أعضاء من غير المسئولين ، وكانت هذه أول مرة يشارك فيها شعب زنجبار حكومته في إدارة شئونه . وفي عام ١٩٤٦ زاد عدد الأعضاء غير الرسميين واحدا ، وفي عام ١٩٤٧ زاد واحدا آخر ، لتمثيل الإفريقيين .

وفي عام ١٩٥٦ جرى توسيع المجلس ، وارتفع عدد الأعضاء غير الرسميين من ٨ إلى ١٢ ، ومنهم أربعة عرب ، وأربعة أفريقيون وثلاثة هنود ، وأوروبي واحد .

وكان هناك في الوقت نفسه تمثيل عنصرى في المجلس التشريعى ، ولكن ذلك توقف عندما صدر في عام ١٩٥٦ المرسوم الخاص بالجنسية في زنجبار . وأصبح الأعضاء غير الرسميين « أعضاء ممثلين » . كما عين في الجانب الرسم لأول مرة ثلاثة أعضاء من موظفى الحكومة ممن كانوا من رعايا سمو السلطان ؛ وعين في المجلس التنفيذى ثلاثة أعضاء ممثلين ، وعهد إلى كل منهم بمسؤوليته لإحدى الإدارات الهامة في الحكومة ، وبذلك أصبح ممثلو الشعب يشاركون لأول مرة في إدارة شئون بلادهم . كذلك أنشئ مجلس خاص لتقديم المشورة للسلطان ، فيما يتعلق بممارسة سلطاته . ويتكون من المقيم البريطانى ، والسكرتير الأول ، والمدعى العام وما لا يزيد عن ثلاثة أعضاء آخرين يعينهم السلطان .

وفي مايو ١٩٥٧ تقرر بناء على توصيات مستر كوتس (السير والتوكوتس بعد ذلك) - أن يكون شغل مقاعد ستة من الأعضاء الممثلين الاثنى عشر بالانتخاب ، وستة بالتعيين من جانب السلطان طبقا لمشورة المقيم البريطانى ، واستنادا إلى طلبات مقدمة من أفراد ، وبحيث يكون كل منهم حاصلًا على تأييد مائة صوت على الأقل .

وجرى زيادة المقاعد الستة التى يشغلها أشخاص منتخبون إلى ثمانية . وفي مايو ١٩٥٩ : ومع ذلك فإن هذا التغيير لم يوضع موضع التنفيذ قبل

موحد الانتخابات التالية ، وفي أغسطس من نفس العام سنت الحكومة قانوناً يعطى المرأة هذا الامتياز .

ونتيجة لتوصيات سير هيلارى بلود المفوض الدستوري في نوفمبر ١٩٦٠ عدل دستور المجلس التشريعي بحيث أصبح يضم اثني وعشرين عضواً منتخباً وخمسة أعضاء يعينهم السلطان بناء على مشورة المقيم البريطاني ، وكان ذلك تغييراً هاماً في التاريخ الدستوري لزنيجار ، فقد أصبح يضم لأول مرة أغلبية من ممثلي الشعب في المجلس التشريعي — يتمتعون بمسؤوليات وزارية . ولم يعد المقيم البريطاني هو رئيس المجلس ، وحل محله رئيس منتخب من بين الأعضاء .

وأجريت ثاني انتخابات عامة في زنيجار في يناير ١٩٦١ لشغل جميع المقاعد الاثني والعشرين . ووصل هذا الإجراء إلى طريق مسدود ، وتقرر تشكيل حكومة مؤقتة تضم ممثلين عن كل حزب من الأحزاب السياسية الثلاثة ، وهي : الحزب الوطني الزنيجاري ، والحزب الأفروشيرازي ، وحزب شعبي زنيجار وبيمبا ، مع وجود سكرتير مدني يزاوِل مهام رئيس الوزراء ، ومن أجل تفادي مواجهة تغيير آخر ، زيد عدد الممثلين المنتخبين من ٢٢ عضواً إلى ٢٣ لثالث انتخابات عامة في يونيو ١٩٦١ والتي أسفرت عن تشكيل حكومة ائتلافية ، من حزبين : الحزب الوطني لزنيجار ، وحزب شعبي زنيجار وبيمبا ، وفي نوفمبر ١٩٦٢ أدخل نظام الاقتراع العام لجميع اللذين بلغوا سن ٢١ عاماً فما فوق .

وفي مايو ١٩٦٣ صادر المرسوم الدستوري ليحل محل مرسوم المجالس ، وحل محل المجلس التنفيذي ، مجلس وزراء يضم رئيس وزراء وعدداً من الوزراء لايزيد عن سبعة . وأنشئت جمعية وطنية لتحل محل المجالس التشريعي ، وجميع أعضائها الواحد والثلاثين منتخبون .

وفي ٢٤ يونيو ١٩٦٣ — منحت زنيجار حكماً ذاتياً داخلياً و دستورا

جديدا بدأ سريان مفعوله في نفس اليوم ، وأعقب ذلك إجراء رابع انتخابات عامة في ٨ يوليو ١٩٦٣ ، ونتج عنها تشكيل حكومة من تحالف الحزب الوطني الزنجباري وحزب شعبي زنجبار وبيمبا .

ونتيجة للمناقشات التي جرت بين ممثلي الحكومة والمعارضة وبين الحكومة البريطانية ، أعلن يوم ١٠ ديسمبر ١٩٦٣ موعدا للاستقلال التام لزنجبار وبذلك انتهت الحماية البريطانية التي استمرت ٧٣ عاما . وتغير لقب السلطان بعد العاشر من ديسمبر ١٩٦٣ من سموه إلى جلالته .

ولم يدم هذا الاستقلال أكثر من شهر ، ففي ١١ يناير ١٩٦٤ صدرت من داخل افريقية إلى زنجبار عملية انقلاب دموي أطاحت بالحكومة الشرعية المنتخبة ، وقتل آلاف الأبرياء ، منهم كبار في السن ونساء وأطفال ، غالبيتهم من العرب .

الثورة في زنجبار ، ولماذا ؟

تكاد جميع الثورات التي وقعت في أجزاء مختلفة من العالم أن تكون نتيجة فشل من جانب رئيس الدولة وحكومته في أن يجعل شعبه يحقق الاحتياجات الأساسية للحياة .

وبشكل أو بآخر فإن مثل هذه الدولة ربما لا تملك من المصادر والوسائل ما يمكنها من تلبية حاجات المواطنين ، وإن القليل الذي تملكه يستخدم بفعلة رئيس الدولة وبعض من رجاله المقربين ، ومثل هذه الظروف كفيلة بإشعال ثورة لها ما يبررها ، وإن ما يبرر مثل هذا النوع من الثورات أن جماهير الشعب تتعرض للموت جوعاً ، بينما رئيس الدولة ومساعدوه يتجاهلون حاجات الشعب ومشكلاته ولا يهتمون إلا بأنفسهم ومصالحهم .

وهناك أنواع من الثورات الأيديولوجية ، حيث لا تخطئ الحكومة القائمة برضاء قطاع معين من الناس .

فيعمد هؤلاء الساخطون إلى تنظيم أنفسهم ، ويسعون إلى الحصول على تأييد إحدى الدول الأجنبية التي تلتقي وجهة نظرها مع نوعية التغيير المطلوب .

وفي أغلب الأحوال يقوم بهذا النوع من الثورات عناصر تسعى إلى السلطة من أجل السلطة ، لا من أجل مصلحة الشعب ورفاهيته وتقدمه . وما إن تصل تلك العناصر إلى هدفها حتى تنقلب على مواطنيها وتتحول إلى أداة لتحقيق سياسة الدولة الأجنبية التي كانت تساعدتها .

ومع ذلك فإن الثورة في زنجبار حدثت لأسباب مختلفة ، كما قد ذكرت أسباب مختلفة في تبريرها ، وأغلب هذه المبررات أن السكان العرب كانوا

يستغلون الأفريقيين، ومن هنا اكتسبت الثورة طابعاً عنصرياً ، وأن الثروة الوحيدة التي كان يملكها العرب هي الأرض ، لكن العرب لم يكونوا الفريق الوحيد الذي يمتلك الأراضي ، فقد كان هناك الهنود والأفريقيون أيضاً . والأرض نفسها لم تكن تعتبر في نظر أصحابها شيئاً هاماً ، غير أن أهميتها تكمن في مزارع القرنفل وجوز الهند التي كانت تضمها ، وعلى الرغم من وجود محاصيل أخرى كالمانجو والبرتقال غير أن تلك المحاصيل لم تكن تعتبر ثروة .

وبالتالي فإن من كان يرغب في زراعة محصول يوفر له الغذاء ، فإنه يستطيع أن يفعل ذلك في أرض أى شخص - وإن كان ذلك يبدو غريباً - بدون إذن أو حتى علم صاحب الأرض . وكان المزارعون في زنجبار يعيشون فوق أراض مملوكة لغيرهم ، ويستغلونها لأنفسهم ، وإذا أراد صاحب الأرض أن يحصل على شيء من المحصول ، فإنه يدفع فيه التدين السائد في السوق . وإذا رفض فإن المزارع يستطيع أن يذهب بمحصوله إلى السوق . لكن ثوار زنجبار لم يعلموا مبررات يخدعون بها العالم ، ويغطون بها على الحقائق السائدة في زنجبار .

وكان الحلم الذي روجوا له هو أنه بمجرد الاطاحة بالعرب ومصادرة أراضيهم ، وإعادة توزيعها على الأفريقيين ، فإن كل فرد في البلاد سيصبح ثرياً . وعندما أخذ يتردد ذلك في أسماع الأفريقيين ، تصور كل واحد منهم أنه سيتحول إلى شخص ثري له مكانته ومركزه في المجتمع .

ومع ذلك فإن الأفريقيين لم يكونوا غافلين عن أن مثل ذلك العمل سوف يعنى الانتحار الاقتصادي للبلاد . فليس في النظم الشيوعية ولا الرأسمالية ما ينص على أن تفتتت الأرض إلى ملكيات صغيرة ، يمكن أن تحقق فائدة اقتصادية .

ولقد جزئت الأرض في زنجبار إلى ملكيات صغيرة ، مساحة كل منها

آكر واحدا (فدان) ، ووزعت على الورثة غير الشرعيين للعرب الذين قتلوا أو سجنوا وجدير بالذكر أن الأرض الزراعية في زنجبار مليئة بأشجار القرنفل وجوز الهند ، وهى أشجار تغل حاصلاتها موسميا ، ومن أجل الاعتماد عليها كملكية اقتصادية ، يلزم أن ينفق عليها الفرد أموالا طائلة للمحافظة على نظافة الأرض المزروعة ، وزرع أشجار أخرى بدل الأشجار التى تموت . وقد أغفلت السلطات هذه الحقيقة .

ونتيجة لذلك فإن الملاك الجدد قد أدركوا ، أنه لكي توثق الأرض بمحصول وفير فلا بد عليهم من الإنفاق عليها ، وحيث إنهم غير قادرين على الإنفاق فقد اضطروا إلى ترك مزارعهم ، وآثروا الهروب إلى داخل البلاد للعمل فيها ، عمالا بالأجر .

وبالإضافة إلى تدهور جودة المحصول بسبب الآفات الزراعية فإن الحكومة أرغمت المزارعين على ألا يبيعوا محصول القرنفل إلا إليها ، وبأسعار تحددها وزارة الخارجية ، وكان السعر الذى تشتري به الحكومة الرطل من القرنفل هو ١٥٠ شلنا ، وتبيعه للولايات المتحدة الأمريكية بـ ١٧٠٠ شلنا .

ولم يكن سعر الشراء من المزارع هو دخله الصافى ، فقد كان عليه أن يشتري حصيرا لتجفيف القرنفل ، وبناء أكواخ مؤقتة فى موسم الحصاد ، وقضاء وقت ينشر فيه القرنفل على الحصير لتجفيفه فى الصباح ، ثم جمعه فى المساء ، أو فى وقت المطر الذى ينزل فى أى وقت .

وإذا أسعد الحظ المزارع فإنه لا يكسب من زراعته ما كان يحصل عليه وهو عامل أجير ، إذ كان أجر العامل هو ١٥٠ شلنا كل ثلاثة أيام ، وكان عمل الأجير عبارة عن مجيئه فى الصباح فيصعد على أشجار القرنفل ليجنيها ، ثم يأتى فى المساء ليفصل القرنفل من دهره ، ويستلم أجره ، أما باقى الأعمال فيقوم بها صاحب الأرض ، ولهذا فقد أصاب الوضع الجديد

الملاك الجدد بخيبة أمل ، وتبخرت فيه كل أحلامهم ، وأصبحت البلاد فقيرة في القوى البشرية نتيجة هجرة المثقفين منها ، العرب والإفريقيين على السواء ، ولجأ ما لا يقل عن مائة ألف منهم إلى دار السلام ، وذهب عشرون ألفا على الأقل ، ممن هم من أصل عربي إلى وطنهم الأصلي ، وطن آبائهم وأجدادهم ،

ومن الغريب أن خطة الثورة - إذا استخدمنا هذا التعبير - لم ترسم بيد الإفريقيين وحدهم وإنما بمشاركة أبناء بعض ملاك الأرض العرب كذلك ، وهؤلاء كانوا مجموعة من الشباب بقيادة عبد الرحمن محمد الذي يعرف باسم « بابو » .

وكان بابو في البداية سكرتيرا عاما للحزب الوطني الزنجباري ثم اتصل بالصحفيين عندما أوفده حزبه للحصول على تأييد بكين ، وقد عين وكيلًا عن وكالة أنباء الصين الجديدة (صينموا) ، وعمل من خلال نشرته المحلية التي أسماها « زانيوز » ، على نشر الأفكار الشيوعية في زنجبار وشكل مجموعة تسمى رابطة الشباب جعلها فرعًا للحزب الوطني الزنجباري ، ثم أعاد تسميتها ، فأصبحت « حزب الأمة » عندما انفصل عن الحزب الوطني ، وكان توقفت انفصاليته متفقًا مع اقتراب موعد الانتخابات العامة ، بعد أن اقتنع بأن أيديولوجيته الشيوعية لا تجد صدى لدى زعماء الحزب الوطني الزنجباري ،

وعندما فشل « بابو » في تحقيق أهدافه من خلال الحزب الوطني فإنه أدمج مجموعته مع الحزب الأفروشيرازي للقيام بثورة ، واعتقد أنه سيتمكن بعد ذلك من التخلص من الحزب الأفروشيرازي ، وفرض النظام الشيوعي تحت قيادته . لكن ذلك لم يتحقق ، لأن أفكار شركائه الآخرين كانت تتعارض مع أفكاره . وأعلن زعماء الحزب الأفروشيرازي من على منصات الخطابة أنهم سيظلون في حاجة لخدمات أصدقائهم طالما أنهم لا يملكون الثراء والتعليم . وبذلك أقنعوا هؤلاء الأصدقاء بأن وجه دهم سوف يستمر

إذا وصل الحزب الأفرو شيرازى إلى السلطة . ولذلك أعطوا أيديهم الكامل
لخطط الأفرو شيرازى للقيام بانقلاب .

وفى يوم ٧ يناير ١٩٦٤ وصلت إلى دار السلام سفينة اسمها
« ابن خلدون » تحمل شحنة عسكرية قيل أنها متجهة إلى الداخل لاستخدامها
فى تحرير إفريقيا . لكن السلطات فى دار السلام - بأحلامها التوسعية .
استخدمت الشحنة لصالح البلد المستقل حديثا . ولذلك فإن الأصدقاء
فى زنجبار الذين ظلوا يسيطرون على القوة الصغيرة المجهزة بالمركبات
الميكانيكية فى زنجبار قد أعطوا تصريحاً لمعظم الجنود لحضور مهرجان
ينظمه الحزب الأفرو شيرازى مساء ١١ يناير ، وتم ذلك بتنسيق تام فيما بين
المجموعات الثلاث المهيمنة . وقامت سلطات دار السلام بتفريب الجنود
والأسلحة واقتحام ثكنات قوة المركبات الميكانيكية التى ضلّت من جنودها
ومهاجمة مقر قيادة البوليس بأسلحة من الثكنات ومن دار السلام .

وحاول الرجال داخل مقر البوليس المقاومة - ولكن لم يكن لديهم
أمل فى النجاح - فنصحوا السلطان بمغادرة البلاد . فاستقل سفينته بمساعدة
بعض المسؤولين المهتمين بسلامته . وبعد فترة غادر دار السلام إلى إنجلترا .
وبدأ الصراع على السلطة . فقد كان الأصدقاء يعتبرون أعداء ، وبدأ الخبراء
والمستشارون من الدول الشيوعية يتدفقون على البلاد ، وبعد أن أقاموا علاقات
مع الأهالى فإنهم تجاهلوا « بابو » الذى أتى بهم إلى البلاد ، وعملت سلطات
دار السلام من أجل إقامة وحدة : وفى النهاية كان مصير بابو السجن
فى دار السلام ، كما حكم على كثيرين من أنصاره بالإعدام ، وهرب
بعضهم من البلاد . أما العرب الذين نجوا من الموت فقد توجهوا إلى
وطنهم الأم ، وأرسل المفوض العام لشتون اللاجئين بالتعاون مع الصليب
الأحمر سعيًا إلى زنجبار لنقل العرب إلى دى حيث استقبلوا هناك
بقلوب مفتوحة .

ولكى نفهم لماذا وقعت الثورة فى زنجبار فإنه لابد من الرجوع إلى

التاريخ . لقد رأينا كيف ان الرياح الموسمية التي تهب على المحيط الهندي كانت تدفع العرب إلى القيام برحلات إلى شرقي أفريقية وإقامة علاقات مع سكانه . وبسبب تلك العلاقات وجد الإسلام طريقه إلى شرقي أفريقية ، وقد استمرت العلاقات الاجتماعية والثقافية من العرب وبين سكان شرقي أفريقية سنوات غير أنه من الصعب تتبع خطوط تلك العلاقات بدقة بسبب ارتباطات الدم بين العرب والإفريقيين . وكان اكتشاف طريق البحر إلى الهند والذي يعود الفضل فيه إلى العمانيين سببا في وصول الأوربيين إلى أفريقية الشرقية الذين لمسوا عن كثب متانة العلاقات العربية الإفريقية . وقد بذلت تلك الدول قصارى جهدها لخلق شعور من عدم الثقة بين الإفريقيين وبين العرب من أجل تسهيل تقسيم الأرض الإفريقية فيما بينها . . وقد دخل الحكم البرتغالي إلى شرقي أفريقية عن طريق التمهيد البالغ والتعذيب ، وكان الإفريقيون ياجأون إلى العرب طلبا للعون . . وكان العرب يقدمون يد المساعدة دون شروط لأصدقائهم الإفريقيين فيتمكنون من إلغاء الحكم البرتغالي الذي استمر لسوء الحظ في موزمبيق حتى عام ١٩٧٥ . . وتأسست الحكومة العربية في شرقي إفريقية بعد طرد البرتغاليين نهائيا ، ثم اقتضت على زنجبار عندما بدأت الدول الأوروبية الأخرى « السباق على إفريقية » ، وقد لاقت هذه الدول صعوبات في تحقيق أحلامها بسبب الوجود العربي ، ولذلك فقد أخذت تبحث عن وسائل وأسباب لإنهاء الوجود العربي هناك ، فبدأت بترويج الأكاذيب ، ثم أخيرا باستخدام القوة .

ولعل الحاجة لتكثيف الدعاية ضد العرب قد ظهرت عندما رفض السيد برغش بن سعيد سلطان زنجبار التعاون مع الألمان ضد مصالح شعبي الساحل في تنجانيقا ، ويعود ذلك إلى عام ١٨٨٨ م عندما سيطرت الشركة الألمانية لشرقي أفريقية رسمياً على إدارة ساحل تنجانيقا . . وعندما اكتشف الأهالي هناك التدفق المفاجيء لأعداد كبيرة من الأوربيين إلى بلادهم . . فإنهم نظموا ثورة هاجموا خلالها الألمان وذهب الألمان الذين استطاعوا الهرب إلى زنجبار للاحتجاج لدى السلطان ، وكان رد السلطان

الذى أجاب به على احتجاجهم ، هو أن هؤلاء الأهالى أحرار ، وهم ليسوا
عبيداً ، ولا يمكننى أن أسلمهم إليكم ، فهم يتبعوننى بمحض إرادتهم ، ولقد
أعطيتكم الموائىء بايجار ، لتجمعوا العوائد منها ، وإذا كنتم قد أسأتم
معاملة الأهالى فلا تلوموا إلا أنفسكم ، وهذا هو ردى عليكم .

ولقد حاول الألمان إقناع السلطان باستخدام القوة لإخماد ثورة الأهالى
ولكنه رفض بشدة قائلاً ، إن سياستنا تقوم على حسن المعاملة ، وليس
على القوة فى حكم الشعوب .

وعقب هذا الحادث تعرض الأهالى لحصار بحرى فرضه عليهم الألمان
والإنجليز لمدة عام تقريباً ، من ٢ ديسمبر سنة ١٨٨٨ إلى أول أكتوبر
سنة ١٨٨٩ .

ولم تنته لعبة الاستعمار الأوروبى عند هذا الحد ، واستمرت ، وانتهت
إلى توقيع اتفاق انجلو ألمانى ، فى برلين ، فى أول يوليه سنة ١٨٩٠ .

وكان الهدف من هذا الاتفاق هو حمل السلطان على مشاركتهم فيما
يزعمونه من إجراءات ، لكن السلطان كان بطيء الرد عليهم ، فأعكتهم
هذا من النجاح عام ١٨٩٠ ، عن طريق التهديد والمؤامرات والمكائد ،
فى جعل شرق إفريقيا كله ، وليست زنجبار وحدها ممتلكات للدول
الغربية .

وينتقد بعض الكتاب سلطان زنجبار ، ويحملونه ، بسبب تصرفه هذا
تبعية ما تلا هذا الموقف من حوادث ، وأنه لم يستطع الاحتفاظ بجزءه
فى شرق إفريقيا .

وقد ذكر المؤرخ البريطانى ، هولنج ورث ، أن إنجلترا سمحت
لألمانيا بأخذ خير الأجزاء من ممتلكات السلطان وأنها أخذت لنفسها الباقي .
وأنا لنجد أسباباً تشكك فى صحة البيان الذى أدلى به (سير فر جسون)

وكيل وزارة الخارجية البريطانية في البرلمان الإنجليزي يوم ٢٤ يولييه سنة ١٨٩٠ ، من أنه ليس صحيحا أن بريطانيا فرصت حمايتها على زنجبار كوسيلة لعرقلة نشاط أى دولة تجارية أخرى ، أو للتدخل فى سلطات السلطان .

ويقول وكيل وزارة الخارجية البريطانية : إن السياسة البريطانية نحو الشرق خلال الثلاثين عاما الماضية لم تكن تتدخل فى سيادة الحكام المحليين ، ولكنها كانت تضمن لهم ممتلكاتهم ، وتجعلها أكثر أمنا ، وشعوبها أكثر سعادة ، وفى نفس الوقت يزاول حكامها استقلالهم .

وإن المرء ليجب من هذا القول ، ولا يمكنه إلا أن يشير إلى ٧٣ عاما من عدم التدخل فى اختصاصات السلطات المحلية ، فهى المدة التى زرعت الفرقة والبغض وأقامت النزاعات والخلاف والتوتر بين أفراد شعب عاش فى ظل وحدة وطنية لا ينظرون فيها إلى الأصول التاريخية .

وإن رفض الحكومة البريطانية حماية زنجبار أثناء الانقلاب الدموى فى يناير سنة ١٩٦٤ بعد شهر واحد من استئلاها من سيطرة بريطانيا التى استمرت ٧٣ عاما ، هو شاهد أيضا ، ويمكن ربطه بحادث آخر وقع عام ١٨٨٤ ، ففي ذلك العام هاجمت السفن الحربية الألمانية زنجبار ، فليجأ السلطان إلى بريطانيا لمساعدته ، فرفضت بريطانيا طلبه .

ويقول المؤرخ الانجليزى الدكتور هولنجزورث ، تعليقا على حادث ١٨٨٤ م : « على الرغم من ولاء السلطان برغش لبريطانيا فإنه لم يحصل على أى مساعدة من الحكومة البريطانية عندما واجهته فجأة مطالب الألمان فى مطلع عام ١٨٨٥ . . ومرة أخرى ، فإن كيرك لم يفعل شيئا لمساعدة السلطان ، لأن التعليمات التى وصلته من وزارة الخارجية البريطانية أرغمته على إقناع السيد برغش بالإذعان لمطالب الألمان » .

وهذا نتيجة لاتفاق ألماني بريطاني ، على أنه لا بد أن يكون السيد

برغش صحية للسباق نحو إفريقية ، مثله في ذلك مثل أى حاكم آخر
في إفريقية ، جنوب الصحراء .

وإن الذى حدث بعد ذلك كان مجرد مناورات للنخبة على الخطط
الاستعمارية ضد الحكام الضعفاء الذين كانوا يجهلون مصائرهم .

ولا يمكن للمرء أن يلوم هؤلاء الحكام على الطريقة التى أخضعوا
بها أنفسهم ومصالح شعوبهم للاستعمارين ، فلقد اعتقدوا صدق
المستعمرين في مزاعمهم عن إقامة حكومة مستقرة ، وفرض القانون
والنظام ، ومعالجة الأمراض وتنمية البلاد ، وتطوير الأحوال المعيشية .

ومن وراء هذا المظهر الخادع بدأ الاستعماريون بإرسال البعثات
التبشيرية لتهدئة الإفريقيين ، وجاء في أعقاب المبشرين إنشاء حكومات
استعمارية ، وبالتالي فقد كان من الضروري أن يتبع ذلك فرض القانون
والنظام وتنمية الأراضي والخدمات الصحية ، وهذه كلها كانت شروطاً
لازمة لاستغلال المواد الأولية في هذه المستعمرات لصالح المستعمرين .

وبدلاً من أن يستخلم الأوروبون الأهالي في الأعمال المكتنية فإنهم
استوردوا أجانب من دول أخرى لشغل الوظائف الأقل مرتبة في الجهاز
الإداري وتشجيع نفس هؤلاء الناس على احتكار التجارة ، ولم تفرض
الدول الاستعمارية قيوداً على الهجرة إلى تلك البلاد إلا بعد أن بدأ المهاجرون
في تهديد مصالح الاستعماريين .

رغمها اختلفت الأساليب التي اتبعتها تلك الدول إلا أنها جميعاً كانت
تشكل فريقاً واحداً ، له سياسة تملأها مصالح مشتركة ، هي الاستحواذ على
الأراضي لاستغلال المواد الأولية وخلق أسواق للمنتجات . . وكان الدين
قناعاً يخفي عمليات خدمة المصالح الحقيقية .

ولم تقف فرنسا مكتوفة اليدين عندما وقع الاتفاق الأجلو ألماني

وإن كانت قد أحتجت لانتهك اتفاقها مع بريطانيا . وكان الاتفاق الأنجلو - فرنسي الموقع عام ١٨٦٢ ينظم البلدين باحترام استقلال زنجبار ولذلك طلبت فرنسا من بريطانيا تعويضاً عن ذلك الإجراء . وقد أدى الاجتماع الفرنسي إلى توقيع اتفاق انجاء - فرنسي آخر في ٥ أغسطس ١٨٩٠ ينص على أن تسمحب فرنسا بمقتضاه اعتراضها على الحماية البريطانية على زنجبار ، وأن تعترف بريطانيا بمطالب فرنسا في مدغشقر ، وبذلك كان الأفريقيون وأراضيهم منها للتقسيم بين الدول التي كانت تزعم أنها جاءت كدول صديقة . وبعد أن نجحت الدول الاستعمارية في تقسيم شرق إفريقيا إلى وحدات سياسية واصابت تقسيم شعوبها إلى مجموعات صغيرة . وكانت هناك ١٧ مجموعة تختص كل منها بمصالحها الذاتية وليس بالمصالح الوطنية .

وخلال الحرب العالمية الثانية صرح للأهالي من أصل آسيوي بشراء الأرز والسكر والمنسوجات البيضاء ، بينما سمح للأفريقيين بشراء دقيق الذرة والأقمشة السوداء لنسائهم . . وكان تجمع الآسيويين أمام مكتب الرقابة على الأغذية مريعاً ، فقد كان ذلك الأسلوب تجسيدا لتطبيق مبدأ فرق تسد .

لقد مهد نظام الرقابة على التغذية طريقاً لإشاعة الكراهية العنصرية . ولذلك فإن تتبع جذور انقلاب زنجبار يقتضي تتبع تاريخ الاستعمار نفسه ، فقد أتاحت فترة التنافس على أفريقية فرصاً كثيرة لزراع بلور الكراهية العنصرية . . وقبل عام ١٩٦٤ كان الأعضاء المهيمنون في المجلس التشريعي الذين يمثلون مختلف المجموعات العنصرية هم ٣ عرب و ٢ أفريقيون و ٢ هنود ، وأوربي واحد . . ولم يكن لحولاء الممثلين أي نفوذ في المجلس ، لأن كل السلطات كانت بيد المقيم البريطاني وخفنة من المسئولين البريطانيين الذين يسيطرون على الشؤون التشريعية . . ورغم أن العرب كانوا أقلية فإنهم أعطوا معظم الامتيازات لمجرد إثارة الكراهية

العنصرية . . والحقيقة أنها لم تكن امتيازات حقيقية ، ولكنها كانت امتيازات مظهرية .

وقد أدرك العرب في النهاية حقيقة الخطر وعملوا على تجنبه عندما قدمت اللجنة التنفيذية إلى الحكومة البريطانية في يونيو ١٩٥٤ قائمة طويلة بمطالب ، اعتبرتها مناسبة لتحقيق نهضة سياسية تقدم لشعب زنجبار كله بصفة عامة وكانت هذه المطالب تتضمن الاقتراع العام للبالغين وانتخابات على أساس صوت واحد لكل رجل وأغلبية غير رسمية من الأعضاء المنتخبين في المجالس التشريعية ونظام وزارى وملكية دستورية ، وكما كان متوقعا فقد رفضت الحكومة البريطانية المطالب كلها ، ولذلك سحبت المجموعة العربية أعضاءها من المجالس وقاطعت كل اللجان الحكومية وامتنعت طوال ١٨ شهراً عن التعامل مع الحكومة البريطانية ، وناشدت المجموعة العربية كل المجموعات الأخرى بتأييدها . وكان ذلك إصراراً منها على إقرار السلام الذى عرفت به زنجبار فى العالم كله ، ولقى ذلك الموقف تأييداً لجماعيا فى البلاد ، وكان طريقا مضموناً لتحقيق الوحدة الوطنية . . ولما كانت الحكومة البريطانية تدرك تماماً نتائج تلك الوحدة فإنها عملت على هدمها ، ودبرت حملات سرية لتهديد الجماعات العنصرية الأخرى ومنعها من وضع يدها فى يد العرب . . وسيد هاشم القاروى إذا علم أن هذه المجموعة المميزة عرضت نفسها لفقد امتيازاتها والنضال من أجل حقوق الأغلبية ، ولقد حدث ذلك فى زنجبار ، وقد يتساءل القارىء . . لماذا ؟ والسبب هو أن العرب اتخذوا من زنجبار وطنهم طوال عشرات السنين . . والعرب وحدهم هم الذين تزاوجوا مع الأفريقيين وعاشوا معهم إلى حد أنهم كانوا يتكلمون لغتهم .

وعندما بلغت المقاطعة العربية شهرها الثامن عشر فى ديسمبر ١٩٥٥ فإن مجموعة صغيرة من الفلاحين الذين أحسوا بالأخطار القادمة للسياسات العنصرية أعلنوا تشكيل الحزب الوطنى الزنجبارى الذى ناضل لتوحيد (م - ٨ - عمان وشرق أفريقية)

الشعب تحت شعار واحد ، هو القومية من أجل التخلص من السياسات التي سعت لتدعيم التقسيمات العنصرية، وقد شجعت تلك الخطوة المجموعة العربية التي لم ترد في تأييدهم تأييداً كاملاً ٠٠ أما الوطنيون فقد قاموا من جانبهم بتأييد كل مطالب المجموعة العربية ، وقام زعمائهم بالعمل ليل نهار ، وزيارة القرى ليشرحوا للشعب أهدافهم الوطنية « وهى الوحدة والعدالة الاجتماعية والاقتصادية ونيل العنصرية والاستقلال العاجل ، ووافق الكثيرون وانضموا إلى تلك الحركة »

وأحدثت ضغوط هذه الأحداث حالة من القلق لدى السلطات فبدأت حملات ضد المجموعة العربية التي أصبحت بدورها أكثر قوة وتصميماً .

ولقد أرغمت مطالب الوطنيون الحكومة على الموافقة على تخصيص ٦ مقاعد منتخبة من بين الـ ٢٥ مقعداً في المجلس التشريعي ، ثم شغل الحزب بالأعداد للانتخابات ، ومع ذلك فإن السلطات ومؤيديها المحليين بالإضافة إلى جفنة من الصحفيين لم يوقفوا حملاتهم ضد الحزب الوطني ٠٠ لكن كلما زادوا من حملاتهم كلما زادت شعبية الحزب إلى أن وجدت السلطات أن الحل هو تشجيع وتشكيل حزب منافس على أسس عنصرية ، ولذلك تم تشكيل الحزب الأفرو شيرازى فى ١٩٥٧ ليدخل الانتخابات فى يوليو ١٩٥٧ ، ولما كانت السلطات تدرك أن الحزب الوطنى يمثل التهديد الحقيقى لمركزها فلما جاهدت لتقويضه ، وقد اعترف « بينى » الذى أشرف على انتخابات ١٩٥٧ فى تقريره ، بأن مكتب الانتخابات التابع له وموظفى الحكومة كانوا وراء تشكيل الحزب الأفرو شيرازى لكى يعارض الحزب الوطنى وليس الاستعمار البريطانى .

وبين تقرير « بينى » نوع الحكومة التى أرادت السلطات أقامتها فى زنجبار ، ومن الغريب أن نفس هذه السلطات لم تسمح فحسب بل إنها شجعت إقامة نظام الحزب الواحد فى تنجانيقا المجاورة ٠٠ وكان حزب الاتحاد الوطنى

الأفريقي لتنجانيقا هو أول حزب سياسي يشكلها، أما الحزب المنافس الذي شكله المستوطنون فإنه حزب تنجانيقا المتحدة، لكن هذا الحزب تم حله. السماح لحزب الاتحاد الوطني الأفريقي لتنجانيقا بالبقاء، وحتى الأثاث الفاخر الذي كان يخص الحزب المنحل أخذ وقدم هدية للحزب الآخر، وكان سلوك الإدارة الاستعمارية متحيزاً بوضوح. وكان أول ضحية في زنجبار لتلك الإدارة هو السيد سيف حمود بن فيصل آل سعيد الذي أيد الاقتراح العام وفكرة رعايا زنجبار من القومية الزنجبارية والاستقلال الفوري للجزيرة. ورغم أن أي حملة ضد الأسس العنصرية كانت تعتبر مضادة لقانون الانتخاب المعلن إلا أن الحكومة شجعت الحزب الأفرو شيرازي على القيام بذلك علناً. بل إنها شاركت في الحملة لصالحه، وذهب أنصار الحزب الوطني الزنجباري إلى صناديق الانتخاب بمشورات تطالب برفع مستوى المعيشة وتأمينات لكبار السن والعاطلين وتنمية الزراعة واستغلال المصادر الطبيعية وغير ذلك من المطالب، لكن أنصار الحزب الآخر لم يكن لديهم ما يطالبون به سوى تكثيف المشاعر العنصرية والطبقية وتضليل الرأي العام، وأسفرت الانتخابات عن هزيمة كاملة للحزب الوطني الزنجباري وحصل الحزب الأفرو شيرازي على خمسة مقاعد وذهب مقعد واحد لجمعية المسلمين الهنود. وكانت هذه النتيجة مفاجئة للكثيرين الذين يعرفون نشاط الحزب الوطني في شرق إفريقيا.

وبعد عدة انتخابات أخرى فاز تحالف الحزب الوطني الزنجباري وحزب شعبي زنجبار وبيمبا بأغلبية المقاعد وشكل الحكومة، وحدد يوم العاشر من ديسمبر ١٩٦٣ موعداً لاستقلال زنجبار وبعد ذلك بشهر واحد في ١١ يناير ١٩٦٤ وقع الانقلاب الدموي الذي أنهى العلاقة الطويلة للعرب بالأفريقيين والتي استمرت أكثر من ثلاثة آلاف عام وبعد ١٤ عاماً من الثورة أدركت سلطات زنجبار أن السياسية العنصرية ألحقت بها أضراراً جسيمة، وهي تحاول الآن حث العرب على العودة إلى زنجبار والمساعدة في إحياء اقتصاد البلاد.

وفي كثير من بلاد العالم يحظى المقاتلون من أجل الحرية باحترام كبير ، ولكن العرب - زنجبار والذين قاموا بدور بارز من أجل استقلال البلاد وبدأوا التحرك من أجل الاستقلال قد فقدوا كل امتيازاتهم . فهم الذين بدأوا بمقاطعة المجلس التشريعي وكل أوجه النشاط الحكومي من أجل الاستقلال ، ولكنهم في المقابل عوملوا كأعداء ، وقتلوا ، وعذبوا بلا رحمة ، وطردهوا من بلادهم مجردين من كل ما يملكون .

ومع ذلك فإن من المستحيل قطع الروابط الاجتماعية مع أهالي شرف إفريقيا خاصة في زنجبار والمدن الساحلية في كينيا وتنزانيا فإن التزاوج العربي الإفريقي خلق رابطة أبدية وعلاقة ستستمر إلى مالا نهاية بينهما .

وبعد أن أنفقت سلطات زنجبار الانحياطينات الكبيرة التي ورثتها عن الحكومة السابقة فإنها أدركت أن الكراهية لا يمكن أن تسود ، فالثروة التي حصلت عليها من خلال مصادرة الممتلكات قد انفقت بغير حساب وأصبحت البلاد فقيرة في القوة البشرية والاحتياجات المالية .

والآن فإن الحكومة قد فتحت الباب للمهاجرين الذين يرغبون في العودة وبعثت بوفد خاص إلى دول الخليج لإقناع الناس الذين طردوا أو هربوا بالعودة إلى زنجبار .

عمان وعهد ما قبل السلطان قابوس

عندما تولى السيد سعيد بن تيمور والد السلطان قابوس الحكيم عام ١٩٣١ كانت عمان في حالة فقر اقتصادي ، فقد كانت الخزينة فارغة تماماً ، قد ظل هذا الوضع قائماً منذ وفاة السيد سعيد بن سلطان الكبير عام ١٨٥٦ وكان سبباً في تقسيم المملكة إلى دولتين هما عمان وزنجبار ، وكانت تقف وراء هذه الحالة مجموعة من العوامل ، مثل تدهور القوة البحرية العمانية بعد ظهور السفن التجارية وتضاؤل الصادرات بحيث أصبحت كمية صغيرة من السمك والبليح ، والاعتماد الكامل في الدخل على العوائد الجمركية ، وعدم السداد المنتظم للإعانة المالية التي كانت تحصل عليها عمان من زنجبار ، ولذلك لم يكن دخل البلاد يكفي لمواجهة النفقات ، ولذلك قرر السيد سعيد ابن تيمور الاعتماد على الدخل الضئيل وموازنة الدخل والإنفاق دون أي عجز مالي .

ولما كان السيد سعيد يرفض تفويض مسؤولياته لأي شخص آخر فإنه كان يباشر كل شيء بنفسه حتى إنه عندما لم يكن في وضع يسمح بمباشرة الأمور فإنه يطلب ممن يجب أن تعرض أمورهم عليه أن ينتظروا حتى يتمكن من بحث أمورهم بنفسه ، مما أدى إلى البطء الشديد في تصريف الأمور ، وكان عقبة في سبيل تقدم البلاد .

ولقد جاء وقت في عام ١٩٥٨ كان لابد فيه على السيد سعيد أن يطلب المساعدة من بريطانيا بعد ما وقعت اضطرابات داخلية في عمان بسبب الإمامة ، وأوفدت بريطانيا « جولين إمري » إلى مسقط للبحث مع السلطان في طبيعة هذه المساعدة التي يطلبها . وقد تم الاتفاق على تبادل الخطابات ، وشملت المساعدات تطوير

القوات المسلحة ، والطيران المدني ، وتقديم بعض الخدمات للقوات الجوية ،
وعدة مشروعات أخرى للتنمية الاقتصادية في مسقط وعمان .

وفي أعقاب توقيع هذا الاتفاق في لندن يوم ٢٥ يولييه ١٩٧٨ أنشئت
قوات السلطان المسلحة ، وقوات عمان الجوية ، وأما فيما يتعلق بالمساعدة
الخاصة بالتنمية فلم تكن هناك شروط حول الكيفية التي سيتم إنفاق الأموال ،
ولذلك فإن السلطان قد وضع خطته التي يراها في هذا الشأن .

وفي نوفمبر ١٩٦٤ أعلنت شركة تنمية بترول عمان أنها عثرت على
بترول بكميات تجارية ، وأعلنت عن البدء في تصديرها عام ١٩٦٧ .

وإزاء هذه التطورات الاقتصادية أبلغت الحكومة البريطانية السلطان ،
بأنها ستوقف المعونات العسكرية ومعونات التنمية عندما يبدأ السلطان في
استلام عوائد البترول .

ولقد كان هذا الدخل الحديد بمثابة الضوء الأخضر الذي يعلن نهاية
الليل الطويل ، وبداية الفجر المشرق على عمان . ولقد بدأ السلطان
ببعض المشروعات الهيكلية . .

وفي هذه الفترة أصدر السلطان بياناً عاماً قال فيه « أولاً : يجب أن
نبدأ ببناء مكاتب لمختلف الإدارات الحكومية . . ثم مساكن للمستوطنين
الذين سيأتون من الخارج ثم القيام بخطوة بخطوة بمشروعات مختلفة ، مثل
المستشفيات ، والمدارس ، والطرق ، والمواصلات ، والأعمال الضرورية
الأخرى ، بما في ذلك تنمية مصادر الثروة الزراعية والحيوانية والسمكية . »
[حتى تمتد المشروعات الحديثة فوق السلطنة كلها وتصل لكل منطقة حسب
احتياجاتها .] ثم بعد ذلك سوف ندعم الجهاز الحكومي بتزويده بعدد من
الخبراء والفنيين نظراً لأن هناك ضرورة لإحداث تغييرات في الجهاز الحكومي
القائم » .

وحتى ذلك الوقت كان السيد أحمد بن إبراهيم هو الوزير الوحيد في الحكومة ، وكانت مسئولياته هي الإشراف على الشؤون الداخلية والقبالية ، وكان السلطان نفسه يعيش في عزلة تامة في صلالة ، وكانت المدن الرئيسية تحكم بواسطة ولاية مسئولين مباشرة أمام وزير الداخلية . . . وكانت هناك حلقة ربط أخرى في نظام الرقابة الإدارية في الداخل ، من خلال الشيوخ (رؤساء القبائل) والشيوخ كانوا مسئولين أمام السلطان من خلال الولاية ، ومن خلال الولاية أمام وزير الداخلية ، وكانت الأمور الأخرى تحت رعاية سكرتيرين يرأسون بعض الإدارات .

وكانت الخدمات الاجتماعية من اختصاص إدارة التنمية التي أنشئت في عام ١٩٥٩ للتصرف في المعونة المقدمة من بريطانيا بمقتضى اتفاق عام ١٩٥٨ .

وقد ناشرت الإدارة نشاطها في ثلاثة قطاعات ، هي الصحة ، والزراعة ، والأشغال العامة .

وفي مجال الصحة أنشئت عدة عيادات في أنحاء البلاد ، وكان يقوم بالخدمة في هذه العيادات ممرضون من الرجال ، كما أقيمت المستشفيات التي يشرف عليها أطباء ، ويعاونهم فيها هيئات تمريض من الرجال .

وكان المستشفى الوحيد المناسب هو مستشفى البعثة الأمريكية في مطرح ، وفي مجال الزراعة أنشئت مزرعتان تجريبيتان في نزوى وفي صحار ، ولكنهما لم تحققا نتائج إيجابية بسبب قلة الاعتمادات المالية .

وفي مجال الأشغال العامة كان الإنجاز الوحيد هو شق طريق ، طوله مائة وخمسون ميلا ، من العديدة إلى صحار .

وعندما تأكد أن أول شحنة من البترول سوف يتم تصديرها في أغسطس سنة ١٩٦٧ بادرت بريطانيا بوقف معوناتها المالية ابتداء من مارس

عام ١٩٦٧ (نفس العام) أى قبل ستة أشهر من تصدير أو شحنة من البترول .

وأصدر السلطان بيانا قال فيه : « إننا سنعمد خلال هذه الفترة الانتقالية على احتياطياتنا المالية » .

وابتداء من أغسطس ١٩٦٧ عندما بدأ تصدير البترول حاول السلطان الوفاء بوعده ، وعين في أوائل ١٩٦٦ مستشاراً كلف باعداد وتنفيذ خطة التنمية الاقليمية في مسقط ومطرح . وتم اعداد الخطة بالتشاور مع السلطان ، وبعد أن قبلها من حيث المبدأ .

بدأ العمل بإنشاء مساكن المسؤولين في الحكومة ، والمكاتب ، ومكتب جريد للبريد ومدرسة للبنات ، ومستشفى في مسقط ، ومشروع للمياه . . . وكان مشروع المياه . . هو أضخم مشروع وقدرت تكاليفه بحوالى مليون جنيه ، وتضمنت المشروعات الأخرى مد الكهرباء إلى مطرح ومسقط ، وميناء مطرح ، وقد أسندت إدارة مشروع الكهرباء إلى شركة خاصة غالبة ملاك اسهمها من التجار البريطانيين ، وكانت الكهرباء والمياه والميناء هي أكثر المشروعات احتياجاً لأهميتها ولأنها تعتبر علامة ملموسة على طريق التقدم . . وكانت هناك مشروعات أخرى للزراعة أصبحت فيما بعد رصيداً للبلاد تأتي بعد البترول والمصادر المعدنية ، ويوضح تاريخ التعليم الرعاية التي يولها السلطان لتعليم الشعب ، ورغم أن التعليم ضرورى جداً لعمان إلا أن تقدمه كان بطيئاً جداً في الماضي . . وأول مدرسة عامة أنشئت كانت في عام ١٩١٤ . وأنشئت مدرسة أخرى تسمى السلطانية عام ١٩٢٧ ، وقد أغلقت بعد ذلك بستين ، ثم أعيد فتحها واستمرت حتى عام ١٩٤٠ عندما افتتحت في مسقط مدرسة جديدة اسمها السعيدية ، وفي عام ١٩٥٩ افتتحت مدرسة سعيدية أخرى في مطرح بالاستفادة من المعونة البريطانية .

وفي عام ١٩٦٤ أنشئ مبنى آخر ملحق بمدرسة مسقط ولكنه لم يستخدم على الاطلاق . . وكان في كل من المدرستين (مدرسة مسقط ومدرسة مطرح) ثمانية فصول ، في كل منها أربعون تلميذاً ، ولم يكن مستوى التعليم في هاتين

المدرستين أعلى منه في التعليم الابتدائي ٠٠ ولم يسمح بإقامة مدار من خاصة ٠٠
وحدث أن بعض التجار المحليين في صور اشتركوا معاً في تمويل إقامة
مدرسة ولكن الأوامر صدرت لهم بوقف المشروع عندما بلغت أنباءه
إلى السلطان ٠٠

أما الشباب القليلون الذين استطاعوا الخروج من البلاد للتعليم فلم يكن
بوثق فيهم بعد عودتهم وكان كثير من الشباب قد خرجوا من البلاد بالطرق
القانونية ليتعلموا في الكويت والبحرين والعراق والقاهرة بل وحتى روسيا
وقد تفرق هؤلاء الذين تخرجوا قبل عام ١٩٧٠ في كثير من أنحاء العالم العربي
و عملوا مهندسين ومدرسين وأطباء . الخ .

ولم يكن أحد يستطيع العودة إلى عمان في ظل تلك الظروف وكان
معدل الرسوم الجمركية كبيراً ، ولذلك فإن اقتصاد البلاد كان محصوراً
داخل حدودها ، فلم تكن الرسوم تفرض فقط على السلع المستوردة من خارج
البلاد بل أيضاً على السلع القادمة من العاصمة إلى الداخل ٠٠ وكان معدل
الرسوم ٥٪ ولكنه رفع إلى ٢٥٪ عام ١٩٢٠ كعقاب للإهالي في الداخل
لثورتهم ضد السلطان ، ولقى ذلك معارضة قوية من سكان الداخل ونتيجة
لذلك جرت مفاوضات بين السلطان وبين الشيخ عيسى بن صالح بن علي كممثل
للعمانيين في الداخل والمفوض السياسي البريطاني مستر ونجت كواسيط ، وتم
توقيع معاهدة في السيب في ٢٥ سبتمبر ١٩٢٠ وكانت تتضمن ثمانية بنود:
أربعة تخص شعب عمان ، وأربعة تخص شعب حكمه السلطان :

والتي تخص شعب عمان هي : -

- ١ - لا يحصل من أي فرد أكثر من ٥٪ بصرف النظر عما إذا كان
قادم من الداخل إلى مسقط أو مطرح أو صور أو بقية مدن الساحل .
- ٢ - يتمتع العمانيون سكان الداخل بالأمن والحرية في جميع مدن الساحل .
- ٣ - ترفع كل القيود على أي فرد يدخل أو يخرج من مسقط ومطرح
وغينهما من المدن .

٤ - لا تمنح حكومة السلطان حق اللجوء لأى مجرم يهرب من عدالة عمان الداخلية ولا تتدخل فى شئونهم الداخلية .

والشروط التى تخص حكومة السلطان هى :

١ - يتعين على كل القبائل وجميع الشيوخ أن يعيشوا فى سلام مع السلطان ، ولا يهاجموا مدن الساحل ، ولا يتدخلوا فى نشاط حكومة السلطان .

٢ - يتمتع بالحرية جميع الذين يذهبون إلى عمان (الداخل) لأداء أعمال مشروعة أو لنشاط تجارى ولا تفرض أى قيود على التجارة ، وينعمون بالأمن .

٣ - لا يحق لشعب عمان الداخل أن يعطى حق اللجوء إلى كل من يرتكب عملا غير مقبول ، أو أى مجرم يهرب إليها .

٤ - ينظر فى مطالب التجار وغيرهم ضد شعب عمان الداخل ، ويتخذ بشأنها قرارات على أساس العدل ، ووفق قواعد الشريعة الإسلامية .

وقد تمت صياغة هذه المعاهدة بغموض متعمد ، كما اعترف بذلك الوسيط البريطانى ، مستر ونجت ، الذى قال : إن الفكرة من المعاهدة كانت دفع القبائل إلى الاعتقاد بأنها تملك استقلالها ، وفى الوقت نفسه فإن الحكومة البريطانية تستطيع أن تنفى أى اعتقاد لدى السلطان بأن هذه المعاهدة شروطها المذكورة تنتقص شيئا من سيادته على شعب عمان كله وبلاده .

وعلى أى حال فإن المعاهدة قد أكدت أن للشعب العماني فى داخلية البلاد حقاً تاريخياً وعملياً يؤثر فى أسلوب حياتهم ، الذى يختلف فى بعض جوانبه عن الأسلوب المتبع بين سكان مسقط وبلاذ الساحل بصفة عامة ، كما أكدت فى نفس الوقت أن الإمام ، باعتباره زعيم القبائل الداخلية ، له السلطة

المطلقة والنفوذ الشامل فيما يتعلق بمزاولة حقوقه ، ومع كل هذا فلم يكن له في المعاهدة أى إشارة توحى بأن داخل عمان يعتبر دولة مستقلة .

* * *

لقد بدأ تاريخ البترول في عمان عام ١٩٣٧ عندما حصلت شركة البترول الدولية من السلطان على حق امتياز للتنقيب .

وفي عام ١٩٥١ تشكلت شركة باسم « شركة تنمية بترول عمان » لكن عمليات التنقيب تعثرت بسبب الظروف الداخلية في البلاد ، فقررت الشركة التوقف عن عمليات التنقيب بعد أن أنفقت عليها حوالى ١٢ مليون جنيهه .

وفي عام ١٩٦١ قرر الشركاء الباقون ، وهم ، شل وجلبتكيان القيام بمحاولات جديدة ، وفي يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩٦٤ أعلن عن اكتشاف البترول بكميات تجارية في حقول فهود ونشيج وإيل ، واستعدت الشركة لبدء عمليات التصدير التجارى عام ١٩٦٧ ، وتم تصدير البترول في أغسطس عام ١٩٦٧ لأول مرة في تاريخ عمان .

ومن أجل ضخ البترول تم مد خط أنابيب طوله ١٧٥ ميلا من حقول البترول ماراً بالجبال عبر وادى سمائل ، وينتهى عند رصيف ميناء الفحل . وعندما أعلن السلطان مشروعه للتنمية عام ١٩٦٨ نتيجة لعول البترول فإنه وعد بتوجيه اهتمام خاص للشعب المقيم في المنطقة التي يوجد بها البترول ، ومع ذلك فلم يتم تنفيذ أى مشروع .

وعاشت عمان تحت لقانون من قيود عديدة فرضها السلطان . ولم يكن العمانيون على الساحل ، خاصة الذين يتركزون في مسقط ومطرح ، يملكون حرية مد نشاطهم التجارى إلى الداخل ، كما لم يكن العمانيون في الداخل يستطيعون الحضور إلى المناطق الساحلية التجارة ، باستثناء شراء احتياجاتهم .

محلاتهم الصغيرة وبيع بلعهم . وكانت القيود من الحوامل العديدة التي أثارت سخط الشعب على حكم السلطان سعيد .

وكانت العلاقات مع الدول الأخرى قاصرة على بريطانيا والهند ، ولم تكن هناك أى علاقات مع العالم العربى ، وكان لبريطانيا والهند قنصل عام فى عمان ، اكن عمان لم يكن لها أى ممثل فى الدولتين ، وكان العلاقات مع بريطانيا تحكمها معاهدة الصداقة والتجارة والملاحة الموقعة عام ١٩٥١ ، وإلى تعتبر امتدادا للمعاهدة الأصلية لعام ١٧٩٨ ، أما العلاقات مع الهند فتحكمها المعاهدة الموقعة عام ١٩٥٣ ، واعتمد السلطان على تمثيل بريطانيا له فى العالم ، خاصة فى الأمم المتحدة .

أما البلاد الأخرى التى كان للسلطان علاقات دبلوماسية معها - ولكن لم يكن له ممثلون بها - فهى الولايات المتحدة الأمريكية - وألمانيا الاتحادية ، وفرنسا .

وكانت المعاهدة الأصلية مع الولايات المتحدة قد وقعت عام ١٨٣٣ ، من جانب السيد سعيد بن سلطان وروبرتس . وتجددت عام ١٩٥٨ ، لكن الأمريكيين لم يأتوا الى عمان خلال السلطان سعيد بن تيجور . واكتفوا بإيفاد ممثلهم فى عدن للتقيام بزيارات من حين لآخر إلى مسقط ، ليرى ما إذا كان قد جد جديد .

وبالذسية لألمانيا الاتحادية فقد حدث تبادل للخطابات عام ١٩٦٧ على أساس المعاهدة التجارية الموقعة بين عمان والألمان عام ١٨٧٧ ، ولكن لم تكن لها نتائج عملية فى السنوات اللاحقة .

وفىما يتعلق بفرنسا فالعلاقات معها تعود إلى أيام نابليون ، ولكن لم تجر أى اتصالات ذات أهمية خلال عهد السلطان سعيد بن تيمور . وفى الحقيقة فإن السلطان أوضح عن طريق ممثليه فى الأمم المتحدة أن المعاهدات

التي وقعها أسلافه غير ملزمة له ما لم يتم تجديدها ، وكان يريد بذلك أن يوضح أن معاهدة السيب أصبحت لاغية .

ولم تكن للسلطان أى ثقة بالأمم المتحدة ، وقد أعلن ذلك ، لكنى يوضح - من خلال الممثل البريطانى - أن عمان دولة مستقلة ذات سيادة على كل أراضيها .

وكانت عمان قد انضمت إلى الأمم المتحدة لأول مرة عام ١٩٥٩ بعد أن طلب السلطان المساعدة ضد الإمام . وعندما أرسلت له بريطانيا قوات فإنها اتهمت بالعدوان ، وخلال السنوات التالية أقنعت الحكومة البريطانية السلطان ، بدعوة الأمم المتحدة لإرسال ممثل عنها إلى عمان ليرى بنفسه الموقف على الطبيعة . وفى ١١ ديسمبر ١٩٦٢ سلم المندوب البريطانى للسكرتير العام للأمم المتحدة دعوة من سلطان مسقط وعمان لإرسال ممثل شخصى لزيارة السلطنة فى العام الذى يليه لدراسة الأوضاع عن الموقف هناك على الطبيعة ، وقبل السكرتير العام الدعوة ، وعين مستر روبرت دى ريبينج ممثلاً شخصياً عنه ، وغادر نيويورك فى ١٨ مايو ١٩٦٣ ، إلى عمان ، وعاد إلى نيويورك فى أول يوليو ١٩٦٣ .

وبعد تقديم تقرير دى ريبينج عن الموقف فى عمان إلى الأمم المتحدة ، شكلت لجنة مؤقتة لبحث مسألة تقرير المصير فى عمان . واستقبل السلطان رئيس اللجنة فى لندن ، ولكنه رفض السماح لأعضائها بزيارة عمان ، إذ لم يكن تقرير اللجنة يرضى السلطان .

ولذلك أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١٧ ديسمبر ١٩٦٥ قرارا يعترف بأن حق عمان الداخلى فى تقرير المصير ، قد منع مزاوته من جانب بريطانيا ،

وقد صدر القرار بأغلبية ٦١ صوتاً ضد ١٨ صوتاً وامتناع ٣٢ دولة

عن التصويت ، وتغيب ستة أعضاء . ولذلك كان هذا القرار نهاية لأي اهتمام من جانب السلطان بالأمم المتحدة .

وفي أوائل عام ١٩٥٧ ناقشت الجامعة العربية مشكلة استقلال عمان بعد أن عرضها مكتب الإمامة ، وقد أقام زعمائهم مطالبهم على أساس معاهدة السيب ، ولكن معاهدة السيب كما شرحنا آنفا قد صيغت بعبارات غامضة وبصورة مقصودة ؛ وحتى عندما عرضت المشكلة على الأمم المتحدة فإن بعض الدول التي امتنعت قد فعلت ذلك بسبب غموض بنود معاهدة السيب ، وذكر ممثل أوروغواي - مثلاً - أنه امتنع عن التصويت بسبب عدم الوضوح فيما يتعلق بالحقائق .

وقد تضمن تقرير ريبينج فقرة نصف موقف السلطان ، وقد تردد قبل أن يبدأ ريبينج رحلته إلى عمان لمقابلة السلطان ، أن مندوب شيلي سأل عن عدم إيفاد السلطان ممثلاً عنه إلى الأمم المتحدة ليدافع عن قضيته . وعندما قابل ريبينج السلطان في ٢٤ مايو ١٩٦٣ ، فإن هذا الموضوع أثير ، وعندما أجاب السلطان على السؤال فإنه بدأ أولاً بتأكيد سيادته وأوضح بشكل محدد :

١ - أن بلاده ليست عضواً في الأمم المتحدة :

٢ - أنه أبلغ السكرتير العام أن أية مناقشة من جانب الجمعية العامة لمشكلة عمان الداخلية تمثل تدخلاً في شؤون بلاده ،

٣ - أنه لا يرى سبباً في أن يذهب إلى المحكمة ويجلس في مقعد المتهم .

لقد عاشت عمان في عزلة كاملة خلال عهد السلطان سعيد بن تيمور . ولم يكن ممكناً أن يتسامح الشعب إزاء ذلك الوضع ،

فبدأ تدبيراً تحركات ضده . وحصلت المعارضة الإمامية على تأييد من الدول العربية خاصة من العراق وسوريا والسعودية ومصر والكويت : وبعد ذلك قامت جبهة تحرير ظفار التي كانت في مراحلها الأولى ، كحركة انفصالية تسمى من أجل استقلال ظفار وتحظى بتأييد الدول الشيوعية ، ثم أصبحت في السنوات التالية تمثل خطراً كبيراً ليست لعُمان فحسب ، بل أيضاً للدول الخليج كلها . بعدان حصلت على تأييد من الدول الشيوعية .

التمرد في ظفار

ظهرت فكرة العمل من أجل استقلال الإقليم الجنوبي - ظفار - عن عمان عندما غادر بعض شباب ظفار بلدهم لأبحاث عن عمل في دول الخليج في منتصف الخمسينات من القرن العشرين ، وهناك اتصل هؤلاء الشباب بعناصر عربية من دول أخرى ، فساعدوهم على تدبير خطة للتمرد .

ولم تكن هناك في عمان سلطة مستقرة في ذلك الوقت ، فالمنازعات القبلية أصبحت من المشاكل المتعذر حلها ، وقد اتسع العداء في ظفار بين الكثيرين الذين يحتلون السهول ويقتنون فيها وبين الفاراس ، سكان القرى ، الذين يعيشون في التلال إلى حد نشوب الحرب بينهما . وقد استغل شباب ظفار في دول الخليج هذه الأوضاع ، وكثرت اتصالاتهم بعدد من العناصر التي تحمل أفكارا قومية عربية ، أو أفكار ماركسية ، واستقر رأيهم على تكوين تشكيل فرع ظفار لحركة القومية العربية .

وفي عام ١٩٦٢ تشكل هذا الفرع باسم الجمعية الخيرية الظفارية ، وقد زعم مؤسسوه ، أن الهدف من هذه الجمعية هو جمع الأموال لبناء المساجد ، ولمساعدة الفقراء من المواطنين .

ورغم أن أعضاء هذه الجمعية لم يكونوا متحدين أيديولوجيا ، فمنهم القوميون ، والماركسيون ، والاشتراكيون ، إلا أنهم جميعا كانوا متحدين في معارضتهم لحكم السلطان ، ولدور بريطانيا في شؤون البلاد ، وقد قاموا وراء ستار الجمعية الخيرية ، بجمع الأموال ، وتجنيد أعضاء والقيام بالاتصالات السياسية بغية القيام بثورة مسلحة ضد حكم السلطان والقوة البريطانية في منطقتهم .

(م ٩ - عمان وسوق أنزويق)

وتكونت مجموعة أخرى، تسمى، منظمة جنود ظفار : من الظفاريين الذين يعملون في فرق الجوالاة العمانية ، وقد عملوا من أجل إقامة دولة مستقلة في ظفار .

وكانت هناك أيضا منظمة الشباب العربي الظفاري ، التي تكونت ، قرا لحركة القوميين العرب ، وهو الفرع الذي تولى قيادته شيخ قبيلة الكثيري ، مسلم بن نوفل الذي كان يعمل من قبل ميكانيكيا في جراج السلطان .

وفي ربيع ١٩٦٣ وزعت هذه المنظمة منشورات تحض على التمرد ، كما هاجمت عربات شركة البترول، وقتلت أحد حراس السلطان . واعتقل قائد المجموعة لكنه تمكن من الهرب وتوجه إلى السعودية حيث اتصل بالإمام غالب . وذهب من هناك إلى العراق بمساعدة السعوديين ، حيث تلقى تدريباً على حرب العصابات وضم أعضاء آخرين لمجموعته .

وتشكلت جبهة تحرير ظفار عام ١٩٦٤ من تلك المجموعة ، ثم تعاونت معها بعد ذلك ثلاث مجموعات أخرى هي : الجمعية الخيرية الظفارية ، ومنظمة جنود ظفار ، والفرع المحلي لحركة القوميين العرب .

وتلقت الحركة مساعدات من حركة القوميين العرب ، والسعودية ، ومصر ، والعراق .

وفي إبريل ١٩٦٥ أصيبت الحركة بنكسة خطيرة عندما ألقي القبض على أربعة من أعضائها في مدن مختلفة في ظفار . وقد حشد ذلك من قوتها ، ونتيجة لذلك عقدت الحركة مؤتمرها الأول في أول يونيو ١٩٦٥ في خميرين ، في الوادي الكبير بوسط ظفار ، لمناقشة وسائل النهوض بتنظيم الحركة ، ولذلك تم انتخاب لجنة تنفيذية من ١٨ عضواً ، أيدت مبادئ الكفاح المسلح وأصدرت بيانها الأول بسلامة الصدد في ٩ يونيو ١٩٦٥ .

وقد ندد البيان بنظام حكم السلطان سعيد بن تيمور ، وناشد جميع
الظنماريين الانضمام إلى التمرد ، وأصدر المؤتمر بياناً سياسياً يتضمن التالي :

(أ) ان الطبقات الفقيرة والفلاحين ، والعمال ، والجنود ، والمثقفين
الشوريين سوف يشككون العمود الفقري للمنظمة .

(ب) سوف يتم تدمير الوجود الاستعماري بكافة صوره - العسكرية
والاقتصادية والسياسية .

(ج) وسوف يتم تدمير نظام الحكم المأجور للسلطان سعيد بن تيمور .

وأصبح الهدف الرئيسي للحركة من ١٩٦٥ إلى ١٩٦٧ إقامة ودعم
وجودها في ظفار . وقامت بتقسيم المنطقة إلى ثلاثة أجزاء - شرق وغرب
ووسط ، وجندت المتطوعين على أسس فردية . لكن عملياتها العسكرية
كانت متقطعة ، واقتصرت على التخريب والقنص ، والكماثر في مواقع
الحكومة ، على السهل ، خاصة في طاقة ومرباط ، وعلى طول طريق
صلالة - ثمريت . وكانت أبرز عملياتها في تلك الفترة هي محاولة اغتيال
السلطان في ٢٦ أبريل ١٩٦٦ ، وقد قام بها جنود ظفار يون متعاطفون مع
الحركة ، ولكن الحركة عادت إلى موقع الدفاع في أوائل ١٩٦٧ ، ففقدت
واجهت نقص التمويل بعد أن قطعت السعودية مساعدتها عنها .

وتباطأت عملياتها بسبب نقص السلاح ، وأيضاً بسبب زيادة الضغط
من قوات السلطان ، وتشتت قواتها

وفي ديسمبر ١٩٦٧ ، وبعد أن حصلت عدن على استقلالها - فإن
جبهة تحرير ظفار تلقت دفعه هائلة من المساعدات من الدول الاشتراكية
من خلال نظام الحكم في عدن .

وعقدت جبهة تحرير ظفار مؤتمرها الثاني في جمرين بوسط ظفار
في سبتمبر ١٩٦٨ ، بهدف تجميع نطاق عملياتها وتنسيق نشاطات جميع
جسور التمرد المتفرقة في المنطقة .

وقرر المؤتمر أن تتخذ الحركة استراتيجية (العنف الثوري المنظمة) ،
ومبدأ « الاشتراكية العلمية » . وكان هذا القرار يعنى بداية محاولة تصعيد
التمرد القبلى المحلى إلى حركة أيديولوجية وراعها تأييد جماهيرى فى أنحاء
الخليج . وتضمن ذلك تغيير اسم الحركة من جبهة تحرير ظفار إلى الجبهة
الشعبية لتحرير الخليج العربى المحتل .

ولم يرض قرار اتخاذ خط أكثر تطرفا بعض الزعماء الأصليين للجبهة
مثل مسلم بن نوفلى الذى قاد منظمة الشباب العربى الظفارى ، ويوسف
العلوى قائد الجمعية الخيرية الظفارية ، ولذلك تركوا الحركة . وقام المؤتمر
الذى حضره ٦٥ عضوا ، بتشكيل قيادة عامة جديدة من ٢٥ عضوا ،
منهم محمد أحمد الغسانى سكرتيرا لها . وبذلك حلت اللجنة القديمة المكونة
من ١٨ عضوا ، والى شكلت عام ١٩٦٥ ، واختير من أعضائها الثمانية
عشر ثلاثة فقط كأعضاء فى اللجنة الجديدة ،

وجدير بالذكر أنه رغم أن السيد سعيد بن تيمور قد نجح إلى حد ما
فى تقويض النظام القبلى فى ظفار عن طريق مناورات عديدة ، إلا أن القبلىة
ظلت مشكلة ، بما صاحبها من نزاعات حول حقوق الأرض والمياه
وغيرها بين سكان الجبال . ولذلك تركزت دعاية الجبهة الشعبية لتحرير
الخليج العربى المحتل خلال تلك الفترة على الجهود لإنشاء نظام الملكية
الجماعية للأرض ، واللجان الزراعية والمزارع النموذجية ، كما زعمت
أنها حلت النزاعات القبلىة عن طريق إنشاء لجنة لحل المشكلات الشعبية .
لكن الحقيقة المرة أن كثيرين من رجال القبائل الذين رفضوا التعامل
معها قد قتلوا . . . والأكثر مدعاة للسخرية ، أن مندوبى الجبهة كانوا
يفرضون الطاعة عليهم عن طريق تطبيق عقوبات اقتصادية . وعلى سبيل
المثال فإن الجبهة استولت على الماشية التى تعتبر الأساس الاقتصادى لسكان
الجبال كى تخضع أصحابها . وقد دخلت الحركة مرحلتها الجديدة بالتدخل

من وضعها الأصلي للثورة القبلية وانتهاج نخط أكثر تطرفا للرفاق ، وإقامة اتصالات مع منظمات سياسية دولية ، وبخاصة تلك المهتمة بمنطقة الخليج ، مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وتدفقت المساعدات المالية والعسكرية على الجبهة من الصين وكوريا الشمالية ومن الاتحاد السوفيتي ، فضلا عن المساعدات التي كانت تحصل عليها من اليمن الجنوبي ، وبذلك أصبحت الحركة مرتبطة تماما بالسياسة الماركسية اللينينية التي ضاعفت بشكل أساسي من خطورة التمرد العسكري في ظفار :

وفي نفس الوقت كانت هناك عدة تنظيمات سياسية أخرى في شمالي عمان ، ومن أكثرها نشاطا ، وهي : الحركة الثورية الشعبية في عمان والخليج العربي - الطليعة الثورية لطلبة عمان والخليج العربي - منظمة الجنود الوطنيين في عمان ، وقد اندمجت كل تلك هذه المنظمات في يونيو ١٩٧٠ وكونت جبهة جديدة سميت الجبهة الوطنية الديمقراطية لتحرير عمان والخليج العربي ، وقد أيدت العراق هذه الجبهة الجديدة ، التي زعمت بأنها جزء من حركة التحرير الوطني العالمية في آسيا وإفريقية وأمريكا اللاتينية ، وقد تألف أعضاؤها من بين الشباب العماني الذين تعلموا في الخارج وتأثروا بالأيديولوجيات والأفكار القومية ، والمتعلمين الفنيين ، والمفكرين والمتعلمين العمانيين القدامى المعادين للسلطان ، وكانت هذه الجبهة مقسمة إلى مجموعتين رئيسيتين ، كل منها من ٣٠ عضواً تعمل إحداها في الجبل الأخضر ، وتعمل الأخرى في الشرقية ، ويقع الجبل الأخضر في المنطقة الجبلية شمال غرب مسقط ، بينما تحتل الشرقية المنطقة الجبلية جنوب شرق مسقط ، وكانت هناك مجموعة تحريب صغيرة ، قاعدتها في صور ، وقد تلقى أعضاء هذه الجبهة تدريباً على حرب العصابات في العراق واليمن الجنوبي والصين ، وفي مخيمات اللاجئين المنظمة لتحرير الفلسطينية ، قرب عمان بالأردن :

وقد شنت الجبهة الوطنية الديمقراطية لتحرير عمان والخليج العربي هجمات على مدن الداخل ، مثل إزكي ونزوى في ١٢ يونيو ١٩٧٠ : وفي إحدى الهجمات التي فشلت اعتقلت مجموعة من تسعة رجال ، أربعة منهم أعضاء في اللجنة المركزية للجبهة ، ثم أعقبت ذلك اعتقالات أخرى وبخاصة بين الكوادر الرئيسية التي تم اعتقال أفرادها في مطرح يوم ١٨ يوليو ١٩٧٠ ، وقد أدى هذا إلى إلحاق ضرر بالغ بعمليات الجبهة في المدن وإلى فشلها في فتح جبهة شمالية ، وهو ما نتجت عنه أزمة داخل الجبهة حول الاستراتيجية والتكتيكات ، وقد زاد هذا التفتك في الجبهة سوءا في ١٠ أكتوبر ، عندما بدأت ثورة مضادة في الجزء الشرقي من الجبل احتجاجا على تصرفات معينة ، منها التعذيب والإعدام ، ومن ثم بدأت عمليات انشقاق عن الحركة . . .

وفي منتصف عام ١٩٧٠ ، وهو العام الذي تدهورت فيه الأمور للثوار في الشمال كان الوضع في الجنوب يتحسن بشكل ملحوظ لصالح الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل ، فقد سيطرت على الجبال ، بينما اقتصر وجود قوات السلطان على السهل الساحلي والمواقع المعزولة في قمم الجبال . وفي ٢٣ يوليو ١٩٧٠ خلف جلالة السلطان قابوس والده بعد انقلاب سلمي وقع في قصره بصلالة ، وكان هذا التغيير البداية التاريخية لتركز الحكومة طاقتها بشكل فعال لمواجهة التمرد والعمل على تحقيق التنمية . . .

لقد جرت محاولة عارضة الإحياء جبهة الشمال أثناء نزاع عمالي في مسقط في سبتمبر سنة ١٩٧١ ، وكان قائدها عضو معروف في الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل ، وهو محمد سالم المعش ، الذي كان يدبر مؤامرات أخرى في مسقط ومطرح ، وقد اكتشفت المؤامرة ، وقضى عليها في الحال ، واعتقل قائدها . أما الذين اشتركوا في الاجتماع فلم تكن لديهم أدنى فكرة عما جرى تدبيره ، وكان البعض يصبح مطالباً بأجر أفضل وظروف عمل

أفضل ، وعندما حصلوا على تأكيد بأن مطالبهم ستكون موضع الدراسة
فلأنهم أنشؤا اجتماعهم بالهاتف لحماية السلطان .

وفي يونيو ١٩٧٠ أثناء المؤتمر الثالث للجبهة الشعبية لتحرير الخليج
العربي المحتل في رنجيوت ، أغرب ظفار ، أصدرت الجبهة برنامجا من ٢٩
نقطة ، تنص على أن النضال الطويل والعنيد هو الطريق الوحيد لتحرير الخليج ،
ولكنها لم تستبعد وسائل أخرى للنضال في مناطق المدن والريف .

وفي ديسمبر ١٩٧١ ضمت الجبهة المؤسسة ، وهي الجبهة الشعبية لتحرير
الخليج العربي المحتل حركة أخرى هي الجبهة الشعبية لتحرير عمان والخليج
العربي ، ونشأت جبهة جديدة تسمى الجبهة الشعبية لتحرير عمان والخليج
العربي .

وعند هذه النقطة كان النضال السياسي يسير متعثرا فكان لابد من نصر
عسكري لرفع المعنويات ،

وفي ١٩ يوليو ١٩٧٢ حشدت هذه الجبهة الجديدة مائة رجل لشن
سجوم على مرياط في الطرف الشرق لسهل ظفا - الساحلي وكان هذا
الهجوم كارثة للتمردين الذين لقنوا درسا رادعا ، كان في انتظارهم ، فتمتددة
سبعين قتيل . وقد أثر ذلك القشل على الحملة العسكرية ، لأن المتمردين
أرغموا على التقهقر إلى الجبال والانسحاب نحو حدود اليمن الجنوبية ، وهو
ما جعل هذه الجبهة تصبح في موقف الدفاع .
وأزفقت أحداث مرياط الجبهة على محاولة تخفيف الضغط في الجنوب
والجبهة الشمالية .

وفي نوفمبر ١٩٧٢ شاهد أحد المنشقين عضوا كبيرا من الجبهة هو محمد
أبن طالب في مطرح فوضعت لذلك قوات الأمن في حالة تأهب ، وبعد
٦ أسابيع من المراقبة شنت الحكومة عملية شاملة في ٢٣ ديسمبر ١٩٧٢
للقضاء على شبكة التخريب . وقد تمت العملية في خمسة أيام ، تم خلالها

اعتقال ثمانية أشخاص ، منهم ثمانى نساء ، ومن بين الأسلحة المخبأة التي
عثر عليها بندق أو توماتيكية (كلاشينكوف) وبندق نصف أو توماتيكية ،
ومدافع مورتار ٦٠ م.م وبندق ومسدسات وألغام مضادة للدبابات ، وكانت
هذه الأسلحة قد شحنت عن طريق صور التي كانت نقطة تقليدية لتهرب
الأسلحة ، وفي نفس الوقت الذي تمت فيه تلك الاعتقالات جرت عملية
مشابهة في الإمارات العربية المتحدة ، حيث كان يجري مراقبة نشاط الجبهة
الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتمل ، ونجحت العمليتان في كبح محاولة
ثورة مسلحة في الشمال ، وأقيمت في يونيو ١٩٧٣ محاكمة ستة وسبعين
شخصاً ، منهم الذين اعتقلوا خلال عملية الخمسة أيام التي بدأت
في ٢٣ ديسمبر ١٩٧٢ ، وقد حكم على أحد عشر منهم بالإعدام ، وعلى
الآخرين بالسجن لمدة تراوح ما بين ستة شهور ومدى الحياة . . . وكانت
إحدى السيدات التي حكم عليها بالسجن ستة شهور حاملاً ، ولذلك
أطلق سراحها بعد ثلاثة شهور . . . وبعد أن ضربت الجبهة للمرة الثانية
في الشمال فلما كانت أيضاً في موقف دفاعي في الإقليم الجنوبي ظفار .

وفي عام ١٩٧٤ أصيب المتمردون بضعف خطير بسبب الانشقاقات
في صفوفهم وبسبب تواجد قوات السلطان المسلحة وقيام مشروعات التنمية
الحكومية في المناطق الجنوبية .

وفي يناير ١٩٧٤ عقدت الجبهة مؤتمرها الرابع الطارئ ولكنها فشلت
في الانساق على سياسة عاجلة وقامت في الصيف بعمل إعادة تقييم
لإستراتيجيتها ، وفي ٩ أغسطس أعلن صوت عمان من مقره في عدن ،
أن الجبهة أعادت تغيير اسمها إلى الجبهة الشعبية لتحرير عمان ، وقد
حولت الإستراتيجية الجديدة التركيز من النضال العسكري إلى
النضال السياسي ، وأوضحت أن أداتها الرئيسية ستكون الجبهة
القومية المتحدة ، وأن الثورة في عمان يجب أن تكون ثورة مسلحة ، وأن
تستفيد من العنف الثوري للجماهير للقضاء على عنف الاستعمارين الغزاة
وعملاتهم المحليين ، وذكرت أن نضال الجماهير العمالية يجب أن يستخدم

كل وسائل النضال في نفس الوقت ، وأن صور النضال الأخرى يمكن تطبيقها في إطار النضال المسلح ،

وقد جاء هذا التغيير عقب تقرير متشائم قدم في المؤتمر الرابع حول المعدل الكبير للانشقاقات من الجبهة والانضمام إلى جانب الحكومة ونقص الإمدادات وسوء المواصلات . ، وأصر مندوبو الجبهة من البحرين وقطر والكويت بتغيير حاسم في سياستها مع التركيز على جهود تجنيد الشباب المثقف الذين لم تجذبهم الخدمة العسكرية . . وقد تردد أن فكرة تغيير اسم الجبهة جاء بناء على نصيحة بعض الحكومات ، على أمل أن استبعاد دول الخليج سيضجج دول المنطقة على الاعتراف بها وبذلك ينحصر التهديد في عمان وحدها . . وقد أثمر هذا العمل لبعض الوقت في دول مالت إلى الاعتقاد بأن التهديد الشيوعي هو مشكلة عمالية بسيطة ، وغضت الطرف عن حقيقة أنه إذا سقطت عمان ضحية للشيوعيين فلن تبقى هذه الدول آمنة بعد ذلك . . ومع ذلك فإنها سرعان ما أيقنت هذا الخطر وبدأت بالتعاون مع عمان أو على الأقل في تقديم مساعدات أدبية لها :

ولقد أجبر الأعضاء الظفاريون في اللجنة المركزية على ضرورة مواصلة النضال المسلح وأدى الخلاف إلى ترك الجبهة بدون قيادة فعالة في الفترة من يناير وأغسطس ١٩٧٤ ، وكذلك فإن تدهور الظروف الاقتصادية في اليمن الجنوبية قد أرغمها على تركيز النظر في شؤونها عن إشعال الثورة في الدول المجاورة .

على أن النتائج العملية للمداولات ١٩٧٤ استوجبت أن يكون للقيادة الإقليمية للجبهة مزيد من السلطة وحرية التصرف ، وكان هذا يعني أن الوحدات العسكرية التي كانت ما تزال موجودة في ظفار يجب أن تترك لها حرية التصرف حسب ما تراه . . وقد علم أن العراق عرضت أن تتولى تنظيم النشاطات التخريبية بدلا من اليمن الجنوبي في الخليج ،

ويعود هذا الموقف إلى التنافس بين العراق وبين إيران وليس لقدرات العراق على إشعال ورعاية ثورة دائمة في المنطقة .

وبعلم وقت قصير من إعلان الاستراتيجية الجديدة أصبحت شمال عمان للمرة الثالثة خلال أربع سنوات ميدانا للتخريب والثورة .
ففى ٢٩ أكتوبر ١٩٧٢ أوقفت سيارة لاندروفر عند محطة تفنيس عسكرية على الطريق قرب الرستاق ، فقام قائد المجموعة التى تستقل السيارة بفتح النيران ، وقتل أحد الجنود وجرى تبادل لإطلاق النيران قتل خلاله قائد المجموعة زاهر على مطر الميسى (المعروف بأسم أحمد على) وكان عضواً فى اللجنة المركزية للجهة . ووجد الأعضاء الأربعة الآخرون فى السيارة ، ومنهم عضو آخر فى اللجنة المركزية ، أنفسهم فى مأزق إذ كانوا يحملون كمية كبيرة من النقود والأسلحة والمتفجرات ، وكان واضحاً أن المجموعة تنوى القيام ببعض الاغتيالات ، وقد تلقت المجموعة تدريبها فى مخيم اللاجئين قرب بيروت تابع للجهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وعقب هذا الحادث اعتقل عدد من الأشخاص بعضهم يشغل مراكز مشولة فى مكاتب الحكومة والبوليس ووزارة الخارجية والجمارك والأعلام ، وكان نجاحهم فى التسلل إلى الوظائف الحكومية مصداً لإزعاج .

وإذا كان مؤتمر حميرين يمثل بداية النضال التخريبي المسلح للمتمردين فإن تولى السلطان قابوس للحكم يمثل بداية سقوطهم ، فمن البداية كان هدف قوات السلطان المسلحة هو قطع خطوط الامدادات عن المتمردين وتعقبهم والقضاء عليهم فى ... وحتى عام ١٩٧٠ قبل أن يحالف السلطان قابوس والده كانت محاولات قوات السلطان المسلحة تجاه نشاط الجهة متعثرة ، وكان سهل صلالة الساحلى هو المنطقة الوحيدة الخاضعة للحكومة ، بينما كانت المواقع الموجودة فى السهل عرضة للهجمات التى تقوم بها الجهة من مناطق مرتفعة مستخدمة مدافع الهاون ونيران الصواريخ . غير أن الوضع أخذ يتحول تدريجياً إلى صالح قوات السلطان المسلحة بعد تولى السلطان قابوس الحكم فى يوليو

١٩٧٠ ، وهو ما أعطى التجرك السياسي قوة في مواجهة التمرد ، وتضاعفت عملية قصف السهل لزاء تقوية المواقع الدفاعية لقوات السلطان المسلحة وهو مادفع المتمردين نحو الجبل .

وقد سارت الحرب حتى عام ١٩٧٢ حسب الدورات الموسمية ففي فصول الرياح الموسمية تحقق الجبهة تقدماً على قوات السلطان المسلحة عندما تكون الجبال مغطاة بالضباب ويصبح من الصعب على قوات الحكومة تعقب المتمردين . . بينما تستطيع قوات السلطان المسلحة التي تعمل أساساً من خلال الغارات الجوية أن ترغم المتمردين على التزام الدفاع أثناء المراسم الخافتة . وبالنسبة لقوات السلطان المسلحة فإن الإحتلال الموسمي للأرض كان مسألة تعتمد على الإمدادات التي كانت غير كافية حتى عام ١٩٧٢ ، ولم يكن الموقف مشجعاً لكثير من أهالي الجبال بسبب استمرار أعمال الإرهاب التي تقوم بها الجبهة . وكانت أقوى نقطة في سميا وتعرف رسمياً بأسم سرفيت وقد أقيمت في إبريل - مايو ١٩٧٢ على الحدود بين عمان وبين اليمن الجنوبي ، وقد تلقت ١٢ ألف طلقة خلال عام ١٩٧٢ - ١٩٧٣ من المدفعية من القوات النظامية لليمن الجنوبية ولكن قوات السلطان المسلحة لم يسمح لها بإطلاق النار إلى داخل اليمن الجنوبية ، استناداً إلى أن سياسة السلطان تقضي بعدم التدخل في الشؤون الداخلية للآخرين والعمل على إقامة علاقات حسن جوار معها .

وقد تغير الموقف عام ١٩٧٤ فقد أصبح التفوق غالباً لقوات السلطان المسلحة ، ولم تقع هجمات منظمة باستثناء القصف الموسمي طويل المدى لعدة شهور من جانب الجبهة . . وكانت قوات السلطان المسلحة قد نقلت المعركة للعدو في صيف ١٩٧٣ و بقيت في الجبل خلال فترة الأمطار الموسمية وأقيم حاجز كثيف من الأسلاك الشائكة فيما بين أواخر ١٩٧٣ و يونيو ١٩٧٤ وطوله ٢٥ ميلاً ويمتد من مغسيل في الغرب إلى جزيرة صلالة ، وكان الخط مانعاً . . وقد أدت تلك العملية إلى وقف الإمدادات التي تأتي بها الجمال من اليمن الجنوبي إلى وحدات الجبهة شرق الخط ، وقبل إقامة الخط الحاجز كان

ما بين ٦٠ ، ٧٠ جملاً تأتي من اليمن الجنوبية محملة بالأسلحة للمتمردين ولكن منذ أواخر ١٩٧٣ لم تستطع أى قافلة جمال الوصول إلى هناك .
وبذلك أصبح المتمردون فى القطاعات الوسطى والشرقية معزولين وعزومين من الإمدادات .

وقد تم اختيار موقع الخط بعناية ، فهو يقع عند الحافة الغربية لإحدى ماعى الماشية وهو أكثر سمكا فى الجنوب عنه فى الشمال ، لأن طرق الإمدادات متعددة فى الجنوب . وبذلك اتجهت الجبهة بطرق إمداداتها شمالاً عبر مناطق مفتوحة وأقل تقبلاً لها .

ومن قواعد هذا الخط أخذت قوات السلطات المسلحة تقوم بدوريات يومية وبنصب كمان ليلية ، ونادراً ما كانت الدوريات تبعد أكثر من ميل ونصف ميل عن قواعدها ، ولم تكن هناك هجمات قوية للجبهة فى المنطقة لمدة سنتين .

وكلما اكتشفت قوات السلطان المسلحة ثغرة فى الخط فإنها تتعقب الذين قاموا بها باستخدام فرق مكافحة حرب العصابات والخلاصة أن الخط قد ساعد على تقليص طرق الإمدادات من الناحية الشرقية والغربية وأدى إلى إنهاك قوات الجبهة فى المنطقتين الوسطى والشرقية ، وتحرك المواقع الدفاعية نحو حدود اليمن الجنوبية .

ويعتبر الجبل الشرقى موقعا هاما لعمان بسبب كثافة السكان ووفرة الماشية ، ولقد كان هناك تركيز للعناصر المقاتلة من الجبهة فى تلك المنطقة ، وبسبب الظروف الحرجة للمتمردين فى القطاع الشرقى فقد أخذت الهجمات العسكرية لقوات السلطان المسلحة تنحو نحو تحقيق سياسة ذات شقين ، أحدهما للتهدة ، والثانى للتنمية .

وقد ترتب على اتباع الاستراتيجية الهجومية لقوات السلطان المسلحة وإنشاء ذلك الخط تحقيق إنجاز عسكري هام ، وهو فتح الطريق الأوسط فى شهر ديسمبر سنة ١٩٧٣ ، وهو الطريق المعتد من صلالة إلى ثمرت

في الوسط ، وهو الطريق البري الوحيد بين مسقط وصلالة ، وكانت الجبهة قد ظلت لعدة سنوات تسيطر على هذا الطريق من خلال الجبل ، حتى إنه كان يوصف بالخط الأحمر للجبهة .

وتلبية لطلب من جلالة السلطان قابوس أرسلت الحكومة الإيرانية قوة تتكون من ١٢٠٠ رجل ظلت هناك حتى نوفمبر / ديسمبر ١٩٧٣ . وفي ليلة ١٩ ديسمبر ١٩٧٣ احتلت هذه القوة الطريق من الشمال والجنوب ، ولم تحدث مقاومة تذكر ، باستثناء طلقات متقطعة وعمليات قناصة ، وظل الإيرانيون يرابطون في خمسة عشر موقعا على امتداد الطريق حتى وصول قوات السلطان ، وقد غادر الجيش الإيراني عمان في ١٠ أكتوبر ١٩٧٤ ، ولكن حل محله غيزه في نهاية العام .

وقد أحدث وصول القوات الإيرانية إلى عمان بعض الاستياء وعدم الارتياح بين بعض الدول الشقيقة التي اتهمت حكومة عمان باستخدام دول أجنبية لسحق أخوة عرب . كما اتهمت إيران بالتدخل في الشؤون الداخلية لدولة مجاورة ، ولكن عمان وإيران كانت لهما أسبابهما المقبولة والمشروعة للقيام بهذا العمل المشترك ، لوقف التسلسل الشيوعي إلى المنطقة .

وقد شرحت حكومة عمان وجهة نظرها لجميع الدول الشقيقة وأشارت إلى خطر التسلسل الشيوعي ليس على عمان وحدها ، ولكن على منطقة الخليج بأكملها . وبذلك أكدت الحاجة لعمل مشترك لوقف ذلك الخطر . لكن النداء لقي آذانا صماء من بعض الدول التي اعتبرت الموضوع مشكلة عمانية محضة ، وقد تركت عمان وحدها مواجهته متجاهلة ما قد يحدث لها إذا ما سيطرت الشيوعية على المنطقة .

ولقد اعتبرت إيران دولة أجنبية في نظر العرب ، رغم أنها دولة خليجية فضلا عن أنها مسلمة . لكن عمان التي لم تتجاهل هذه الحقيقة ،

طلبت مساعدة إيران باعتبارها دولة إسلامية قوية ، وجارة لها وتواجه خطراً مماثلاً .

وفي أول يناير ١٩٧٥ قامت القوات الإيرانية بهجوم على رخيوت وتوئدها قوات السلطان المسلحة واشتبكت مع مائتين من المقاتلين الأقوياء التابعين للجبهة غرب المدينة . ولحققت الجانبين خسائر فادحة ولكن نتيجة المعركة كانت السيطرة الكاملة على الطريق الأوسط وقد رابطت على الخط وحدات من الجندرية العمانية ، بمعونة إضافية من فرق المتطوعين .

وبذلك فإن التدخل الإيراني قد أنقذ منطقة الخليج كلها من السقوط في أيدي الشيوعية . ولاشك أن فتح الطريق الأوسط قد رفع من الروح المعنوية لأهالي صلالة ، وكانت له آثار هامة على فتح الجبل ومساعدته الإدارة المدنية .

ونتيجة لتلك العمليات عزلت وحدات الجبهة في وسط وشرق ظفار ، وتحول دور قوات السلطان المسلحة من مطاردة العدو وتدميره إلى التنمية المدنية .

وقد أدت هذه السياسة إلى نتائج حاسمة في الوسط والشرق ، وأصبح معدل الانشقاق عن الجبهة والاستسلام للحكومة من أفرادها عالياً ، وخلال الفترة من أكتوبر ١٩٧٠ إلى نهاية ١٩٧٤ وصل عدد الذين استسلموا لقوات الحكومة إلى ألف شخص ، والذين قتلوا إلى ٤٣٣ شخصاً .

وعندما تحركت الحكومة إلى المناطق التي كانت تخضع من قبل للجبهة ، فإن التركيز زاد على التهدة على يدي فرق عمل مدنية . وفي المناطق التي تتوافر بها آبار المياه ، أقامت قوات السلطان المسلحة قواعد ومراكز لها . وشملت مثل هذه المراكز : مدرسة وعيادة ، كل ذلك داخل حاجز دفاعي تحرسه فرق المتطوعين . وكانت هذه المراكز هامة لأهالي الجبل ، لأنها كانت تمثل الوجود الفعلي للحكومة في مناطق

لم يكن لها بها وجود في الماضي . وفي نوفمبر ١٩٧٤ تم حفر أحد
عشر بئراً ،

ومع تقدم عملية تهديم المنطقة ، زادت أهمية التنمية الاقتصادية
للجبل ، وكان ذلك يعني تحسين وزيادة سلامة الماشية ، والأرض المزروعة
بالحشائش لوعى الحيوانات ، وبدأت إدارة تنمية ظفار باستخدام سلامة
من الأبقار وأنواع من المحاصيل بهدف ربط اقتصاد الجبل باقتصاد سهل
سلامة ، وكانت الخطة طويلة الأجل تستهدف جعل ظفار مصدراً رئيسياً
للأبقار .

وكان من الممكن تنفيذ خطة التهديم بسهولة من خلال تعاون قوات
السلطان المسلحة مع قوات مكافحة حرب العصابات المعروفة باسم الفرق
للقومية .

وقد تكونت هذه القوات من المتمردين السابقين ، وعملت كنوع من
البوليس القبلي . وكانت وحداتها تعمل في المناطق القبلية ، وكانت
مسئولة عن حماية تلك المناطق من نشاط المتمردين . ويتراوح عدد كل
فرقة منهم ما بين خمسين شخصاً في المناطق التي تم تطهيرها ، ومائة
 وخمسين في المناطق التي مازال يوجد بها متوردون . وقد أجادوا أداء
عملهم وأصبح معروفاً عنهم ، أنهم الوسيلة الوحيدة الممكنة لحفظ
القانون والنظام في الجبل .

وبعد أن تم توفير الأمن في طريق سلامة - ثمرت أصبح الهدف
الرئيسي لقوات السلطان المسلحة هو استئصال جيوب المقاومة الباقية في
القطاعات الوسطى والشرقية من الجبل . وكانت المشكلة العاجلة هي
جيشه أفضى قدر من القوة التي تستخدم المركبات ، طالما كان المتمردون
يتفادون الدخول في معارك مع قوات حكومية متقدمة عليهم ،
وقد خف العبء عن بعض وحدات قوات السلطان المسلحة ، عندما

وصلت قوات أردنية في ربيع ١٩٧٥ لتولى مهمة تأمين طريق صلاحية -
ثمرية .

ثم بدأت فترة وجهت خلالها قوات السلطان المسلحة والفرق صربات
قائلة ضد قوات التمرد خاصة في المناطق التي طالما وصفوها « بالمحمدة »
ويعد أبرزها تلك العملية التي نفذت في منطقة وادي الشوك ، والتي تم خلالها
اكتساح مقر القيادة الرئيسي للشيوعيين المعروف باسم « كتيبة ٩ يونيو »
والاستيلاء على كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة والمعدات . ولأول
مرة ، استخدمت القوات العمانية طائرات الهليكوبتر بقوة متزايدة لنقل
الرجال بسرعة إلى العمليات .

واستمر العمل بهذا الأسلوب منذ بداية العام وحتى حلول فصل
الأمطار الموسمية ، الذي يحد من النشاط الجوى وغيره من النشاطات في
منطقة الجبل . ولم تتح للعدو أدنى فرصة للراحة ، وظلت إمداداتهم معرضة
للضرب والاستيلاء عليها . ومن الجدير بالذكر أنه خلال العملية التي
جرت في وادي الشوك كانت تلتقط رسائل إذاعية من راديو المتمردين
تشكو من الجوع قبل أي شيء آخر ، وهكذا تضاعفت مساحات الأرض التي
يقتف عليها المتمردون في المناطق الشرقية والوسطى ، سواء من حيث
العدد أو القاعية .

وفي ١٥ أكتوبر ١٩٧٥ تحركت وحدات الهجوم التابعة لقوات
السلطان المسلحة من صرفيت زاحفة جنوبا إلى الساحل ، وفي اليوم الثاني
وصلت إليها التعزيزات من وحدات أخرى ، وقد نجحت من خلال سيرها
ليلا في السيطرة على جميع طرق إمدادات العدو في المنطقة .

وفي ١٧ أكتوبر تم تعزيز تلك الوحدات بالمدفعية في صرفيت وقامت
بمهاجمة موقع العدو في حوف باليمن الجنوبية ، ودمرت مواقعها العسكرية
ومدفعيته . وولجأ المتمردون عندئذ إلى قرية ضلكوت التي كانت آخر
مكان يلجأون إليه قبل إنزال الهزيمة الكاملة بهم .

وفي ٢٩ نوفمبر ١٩٧٥ بدأت عمليات التطهير ضد المتمردين على الجانب الغربي .. للجبل . واستولت قوات الفرق الوطنية على كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة .. من المتمردين خلال تلك العمليات التي حققت نجاحا كاملا .

ثم جاء اليوم الكبير ، ففي الساعة التاسعة والدقيقة السادسة والثلاثين من صباح يوم الإثنين أول ديسمبر ١٩٧٥ .. وبعد أن تم اكتساح الإرهابين الماركسيين تماما .. من غربي ظفار ، وجهت قوات السلطان المسلحة ضربة نهائية كاسحة لآخر معاقل العدو في منطقة ضلكوت الساحلية ، وبذلك جاءت نهاية آخر موقع حصين للمتمردين ، وأصدرت القيادة العامة لقوات السلطان المسلحة بيانا عسكريا يعلن :

« حققت قوات السلطان المسلحة والقوات غير النظامية انتصارا حاسما ، وقضت على عصابة الماركسيين الإرهابين في المنطقة الغربية من ظفار .. وهي الآن تفرض سيطرتها الكاملة على كل شبر من الأرض في هذه المنطقة المتاخمة لحدودنا مع اليمن الجنوبية .. وإن قوات السلطان المسلحة التي رفعت أعلام النصر فوق جبال ظفار قد أبلغت الأنباء السعيدة بنصرها إلى قائدها الأعلى جلالة السلطان قابوس .. وتنتهز هذه الفرصة لتجديد عهدها لجلالة السلطان قابوس بالدفاع عن الأرض العمانية ، وحماية المكاسب التي حققتها الشعب العماني تحت قيادته الحكيمة .. وإن قوات السلطان المسلحة والفرق القومية تهنيء الشعب العماني بأكمله بهذا النصر الحاسم .. الذي كان يتطلع إليه منذ وقت طويل ، والذي ناضل من أجله بكل قواته في مواجهة الوسائل الارهابية والعصابات الماركسية التي تؤيدها الحركة الشيوعية العالمية ، وإن قوات السلطان المسلحة والفرق القومية تؤمن بأن هذا النصر سوف يدفع عجلة التنمية إلى الأمام ، وأن آثاره سوف تنعكس بوضوح على مختلف مجالات التنمية والتقدم .. التي تشهدها السلطنة في عصر ازدهارها الحاضر .. وسوف تظل قواتنا المسلحة الباسلة الدرع (١٠ م - عمان وشرق أنريقية)

الذى يحمى بلادنا ، ويردع أى محاولة من الجيوب الشيوعية ضد بلادنا الحبيبة » :

وقد سئل جلالة السلطان قابوس من مراسلى صحيفتى صنداي تايمز الانجليزية ، وواشنطن بوست الامريكية فى ١٦ يناير ١٩٧٦ ، عما إذا كان يرى أن هناك احيالا فى عودة المحاولات الشيوعية للتسلل من جديد إلى عمان .

فأجاب « بأنه لا يوجد أى احتمال من ذلك على الإطلاق . فالذين انضموا إلى المتمردين يدركون الآن أن السلطنة توفر كل فرصة للتقدم والرءاء للشعب العماني وأنهم جميعاً قد عادوا بالتالى ليقوموا بدورهم فى بناء بلادهم رافضين محاولات النفوذ الأجنبى لدفعهم لمواصلة إثارة المتاعب » .

وفىما يتعلق ببقاء قوات إيرانية بعد أن انتهت الحرب قال جلالاته « إنهم يحاقون بسبب الموقف العدائى من اليمن الجنوبية ، وأوضح جلالاته للصحفيين بأن هناك عددا كبيرا من الكوبيين والألمان الشرقيين فى القوات المسلحة لليمن الجنوبية وقوات الأمن فيها » .

وفى يوم الخميس ١١ ديسمبر سنة ١٩٧٥ زحف موكب ضخم يضم مائة ألف شخص من روى لتحية جلالة السلطان قابوس فى استاد القرم وألقى جلالاته خطابا فى جموع الحاضرين الذين كانوا يهتفون ويرقصون خلال مسيرتهم ويهتفون « عاش السلطان ، وعاشت قوات السلطان المسلحة » احتفالا بالنصر الذى حققته قوات السلطان المسلحة فى المنطقة الجنوبية وظهرت به البلاد من المتسللين الشيوعيين :

وقد خلقت هذه المسيرة مشهدا لم تره عمان ، لقد كان موكبا جماهيريا اشترك فيه الجميع من كل أبناء الشعب ، وقد أظهر فيه الشعب فرحته بنصر قوات السلطان المسلحة على العدو فى أول ديسمبر ١٩٧٥ وبعد ذلك تم إعلان يوم ١١ ديسمبر رسما كيوم للجيش .

وساطة الدول الشقيقة

جرت محاولات غير ناجحة للتوفيق بين عمان واليمن الجنوبية وكان جلالة السلطان قابوس يرجب دائماً بأية مبادرة من أى وسيط لتسوية الخلاف مع اليمن الجنوبية انطلاقاً من سياسة حكومته الخاصة بإقامة علاقات أخوية طيبة مع الدول المجاورة ، وبعدم التدخل في الشؤون الداخلية لأي دولة .

وفي عام ١٩٧٣ قامت الكويت بمحاولة لإقناع اليمن الجنوبية بالتخلي عن تأييدها للجهة الشعبية لتحرير عمان ولكن المفاوضات تعثرت وفي مايو ١٩٧٤ زار وفد من أحد عشر عضواً من الجامعة العربية عمان وكان هذا الوفد يضم ممثلين من الجزائر وتونس وسوريا والكويت وليبيا ومصر ، ويرأسه الأمين العام للجامعة العربية . . ولم يسمح للوفد بزيارة عدن . . وقبل ذلك بعدة أسابيع بدأ أعضاء الجهة الشعبية لتحرير عمان حملة دعاية ، حيث أوفدوا وفداً يضم محمد عبد الله حسين (اللجنة المركزية) وعيسى عبد الله (العلاقات الخارجية) لزيارة بغداد ودمشق والقاهرة والجامعة العربية ، كما قابل الوفد قادة الحزب الشيوعي اللبناني ومنظمة التحرير الفلسطينية في بيروت .

وأخذت المملكة العربية السعودية المبادرة في السبعينات لإقناع اليمن الجنوبية بوقف تأييدها للجهة وبدأ أن الأمور تتجه اتجاهها طيباً ، ولكن المراقبين فوجئوا برئيس وفد اليمن الجنوبية في مؤتمر قمة عدم الانحياز في كواومبو ، في أغسطس ١٩٧٦ يعلن بوضوح ، أن حكومته لا يمكن تحت أى ظرف من الظروف أن تكون على وفاق مع عمان ، وأنها ستواصل تأييد أى حركة تعمل ضد حكومة عمان ، ثم كرر نفس

الشخص هذا التصريح في الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الحادية والثلاثين في نيويورك ، وفي نوفمبر عام ١٩٧٦ أعلن وزير خارجية اليمن الجنوبية في باريس أن علاقات حكومته مع السعودية ليست لها علاقة بموقفها ضد عمان ، ثم أعيد تأكيد موقف عدن المعادي لعمان بعد ذلك في كل الاجتماعات الدولية والاقليمية . ومع ذلك فقد فتحت عمان أبوابها وما زال شعبها يأمل ، مثلما كان دائماً ، في أن تغير اليمن الجنوبية مسلكها . وليس هناك ما يمنع من أن تعيش في علاقات أخوة وحسن جوار مع عمان .

لكن ذلك ما زال يبدو حلماً بعيداً جداً مادامت اليمن الجنوبية مستمرة في ولائها للنفوذ الأجنبي الذي يعلو عليها سياسته الحمراء .

عهد السلطان قابوس

انقشع الليل الطويل عن عمان في ٢٣ يوليو ١٩٧٠ عندما أشرق الفجر الذي انتظره الشعب طويلاً ليفسح الطريق للشمس المشرقة معلنة تصحيحها الأكيد على أن تشرق فوق عمان إلى الأبد .

وخلال ذلك الليل الطويل عاش شعب عمان داخل بلاده وخارجها يتذوق مرارة الحياة التي كانت لا تفرق بين المتعلم وغير المتعلم ، ولا بين الشاب والكهل - أو بين الرجل والمرأة - لكنها أصابت الجميع أياً كانوا ، وخلال ذلك الليل الطويل تعود العماني أن يعتبر حقائق الحياة خيالات والخيالات حقائق . . حتى دفنت الحقائق في عقله وأصبح يعتقد أنها مجرد أحلام وسراب لا يمكن الوصول إليه .

وفي الحقيقة فإن العماني قد عرف الكثير وفهم الفرق بين النظرية والحقيقة . . وبين الطيب والخبيث ، وبين الأقوال والأفعال . ولقد قيل الكثير عن شعب عمان منذ قديم الأزل ، ولكن الكثير سوف يقال عنهم بعد أن تولى السلطان قابوس الحكم . ولقد كان السلطان قابوس نفسه ضحية لعزلة طويلة . . وعمل من أجل ذلك اليوم الذي يتولى فيه مسئولية أمور البلاد . فلم يكن يستطيع أن يتحمل طويلاً استمرار الحياة البائسة لشعبه ، ولذلك وقف في يوم ٢٣ يونيو ١٩٧٠ وأعلن لأمتة ، أنه جاء لإنقاذهم ، وليضعهم على قدم المساواة مع شعوب الدول الأخرى المتقدمة في أقرب وقت ممكن . . وشعر شعبه بارتياح عظيم . وكان أول ما فعله جلالة السلطان هو تغيير اسم للبلاد من سلطنة مسقط وعمان إلى سلطنة عمان . . ورغم ما يبداً من بساطة في هذا التغيير إلا أن له معنى سياسياً عميقاً ، ولم تعد البلاد مقسمة بين عمان الداخل والساحل . . أو إلى شمال وجنوب . .

وفي أعقاب تلك الخطوة عمل جلالة السلطان قابوس على الرفاء بوعده .. وبدأ فعلاً في تنفيذ ما وعد به . وجرى تغيير مداهل وبدأ شيخ الماضي يتلاشى ، وبدأت البلاد تزحف إلى الأمام بحماس ، وإصرار مدهش ، وفي مقدور أى إنسان أن يشاهد التقدم الذى حدث فى كل مجالات البلاد .

ولم يكن ذلك بالعمل السهل وبخاصة وأن شيخ الشيوعية الخيف كان ما يزال يركز نظراته على البلاد .

ورغم أن جلالة السلطان قابوس قد آتت إليه تركة مثقلة من المناعب والمشاكل لكنها أضافت مذاقاً إلى تصميمه القوى على رفع شأن بلاده وشعبه من زوايا النسيان الذى ظل يخيم عليه لعدد من السنوات إلى عالم الوجود المتحضر .

وقبل عام ١٩٧٠ لم تكن فى البلاد سوى ثلاث مدارس وكنها للبنين تصم ٩٠٠ تلميذاً .. وكانت هناك مدرسة صغيرة للبعثة الأمريكية بها خمسون تلميذاً وثلاث مدارس صغيرة أخرى للطائفة الحيدربادية فى مطرح ومدرسة تجارية فنية لموظفى شركة البترول ، وكانت كلها قطرة فى محيط الأمة .

وكانت الحاجة شديدة للتعليم من أقصى شياى البلاد إلى أقصى جنوبها ، وكان الناس من كل الأعمار وبعضهم من المتقدمين فى العمر نوعاً ما ، يسرون أمبالاً للمهاب إلى المدرسة .

وبالتأكيد ، فإن التعليم هو العمود الفقري للتنمية ، ثم هناك أيضاً أهمية الصحة ، والمواصلات ، والدفاع ، والمواى ، والمطارات ، والإسكان الخ . وتلك قائمة لا تنهى .

ولقد أعطى التعليم والصحة الأولوية القصوى . فبدأ فى تنفيذ مشروع لبناء ثلاث عشر مدرسة ومستشفى ، ثم بدأ العمل فيه فى الحال . وفى

عام ١٩٧٠ كانت هناك ثلاث مستشفيات فقط في البلاد كلها ، اثنتان تديرهما البعثة الأمريكية وواحدة تديرها شركة البترول . كما كانت هناك عيادة ملحقة بالسفارة البريطانية ، وفي داخل البلاد لم تكن هناك غير عيادات صغيرة يديرها أشخاص مدربون كانوا يشنون حرباً بلا هوادة على المرض والجهل . وعندما زاد عدد المستشفيات كان هناك تركيز على تدريب الشباب العماني ، في الداخل والخارج في مجالات الصحة كأطباء وممرضين ومفتشين صحيين ، ومساعدين للمختبرات .

وفي مجال التعليم كان الهدف الأول هو تعليم أكبر عدد ممكن القراءة والكتابة . ولذلك فإنه بالإضافة إلى ما فعلته وزارة التعليم في مجال التعليم الرسمي فإن جميع الوزارات الأخرى أدخلت مشروعات التدريب المختلفة . كذلك لعبت القوات المسلحة دوراً هاماً ليس في المجال الأكاديمي فقط ، ولكن أيضاً في مجالات علم الصحة وغيره . وفي الحقيقة قد تلقى الشعب دروساً في التعليم ، في المدارس والبيوت والخيام بل وتحت الأشجار .

كذلك تركز الاهتمام على الجيش والقوات الجوية . الرجال والإمدادات والطائرات الخ ، وهذا بالإضافة إلى كثير من قوائم الأولويات المختلفة الوزارات ، وقد انققت ميزانيات الوزارات كلها ، وخاصة أنه لم تكن هناك مساعدات تأتي من الدول التي يعتمد أمنها على نتيجة الحرب . في ظنار ، ومع ذلك فقد زادت عدداً وقوة ، قوات السلطان المسلحة ، وقوات السلطان الجوية ، ويمكن لعُمان اليوم أن تعتبر نفسها في مركز قوى يسمح لها بحماية حدودها الوطنية ضد أي نوع من أنواع التدخل الأجنبي .

ففي مجال الإقتصاد ، تعلق عُمان أهمية كبرى على تنمية الزراعة ، فعُمان تعتبر دولة زراعية بعكس الدول المجاورة لها . وتستثمر الحكومة عائد البترول في القطاع الزراعي .

ويشمل ذلك تحسين الأرض المنزرعة ، وإقامة محطات تجارية للإرشاد المزارعين ، وتنويع الحاصلات الزراعية ، وتحسين الموارد السمكية ، واستخراج المعادن .

وفى مجال المواصلات تحقق الكثير فى شق الطرق ، وبناء الموانئ والمطارات ومكاتب البريد ، وشبكات المواصلات التليفونية التى تخدم المصالح الوطنية والدولية .

وقد احتلت عمان اليوم مكانها كدولة هامة وسط دول العالم . وهى عضو بالأمم المتحدة ، والجامعة العربية ، ودول عدم الانحياز ، وكثير من المنظمات الدولية .

وتحمل الزراعة والثروة السمكية إمكانيات هائلة وبخاصة وأن ٧٠% من السكان — الذين يقدر عددهم بـ ١ مليون نسمة — يعتمدون فى معيشتهم على هذين القطاعين . وتعطى الحكومة أولوية كبرى لتنميتها على نطاق واسع . فالساحل العماني يمتد مسافة ١٧٠٠ كيلومترا ، وتصدر عمان حالياً الأسماك لجاتها . وقد حدث ذلك نتيجة لأول مشروع جرى تخطيطه لتصدير الأسماك على نطاق واسع . وللحكومة هدف بعيد المدى هو استيعاب طاقة البلاد لتصنيع الأسماك ، وإنشاء الأسطول التجارى العماني . ولقد زودت الحكومة الصيادين بالمحركات الآلية لقوارب الصيد ، أماناً لهم فى أداء أعمالهم ، ودفعاً لطاقتهم العملية فى الإنتاج وزيادة الثروة السمكية .

وبالنسبة للزراعة ، تهدف الحكومة إلى تحقيق اكتفاء ذاتى فى كثير من المنتجات الزراعية بقدر الإمكان .

وهناك هدف بعيد المدى أيضاً وهو تصدير المنتجات الزراعية على نطاق واسع . وسوف يحظى محصول البلح — أهم المنتجات الزراعية

العمانية — باهتمام بالغ . إلى جانب السلع التقليدية الأخرى مثل الليمون وجوز الهند ولكن سوف يكون هناك تحول إلى التركيز على مجالات أخرى من المنتجات المربحة مثل الدواجن ، والقمح ، والخضروات .

وما زال التصنيع الزراعي مقصوراً على مصنعين بطاقة إنتاجية تبلغ عشرة آلاف طن في السنة ، وهما مصنع منتجات الألبان ، ومطحن الدقيق . ويصدر فائض إنتاج كل منهما حالياً للدولة الإمارات العربية . ولا شك أن إنتاج هذه المشروعات سوف يخفف بقدر كبير من الواردات الزراعية . وفي الأجل الطويل وعندما يتم التغلب على المشكلات الراهنة . فإن الزراعة وصيد الأسماك سوف تكونان عماد الدخل أكثر مما يمثل البترول والمعادن .

و مجال الصناعة فإن المشروع الذى يعمل الآن على نطاق واسع هو مصنع الأسمنت .

ويوجد مشروع آخر يعمل الآن ، هو خط أنابيب الغاز الممتد من حقول البترول الشمالية إلى الساحل ، وسوف يكون مصنع الأسمنت من أكبر المستفيدين منه لأنه يستخدم الغاز . كما أن هذا الخط يغذى محطة تحلية مياه البحر ، ومحطة الكهرباء في منطقة العاصمة . وربما يتم مد خط الأنابيب أيضاً شمالاً إلى جبال صحار لتزويد منطقة مناجم النحاس بالطاقة . كما تم إقامة عدد كبير من المشروعات الأصغر حجماً في نفس الوقت ، تقوم بعمل صناعات خفيفة ، هدفها إنتاج سلع بديلة للواردات خاصة في مجال الإنشاءات . ومنها مصانع الأثاث ، ومنتجات الألومنيوم ، والمشروبات الخفيفة ، والغازات الصناعية .

ومن المتوقع أن تمضى عمان في الأجل الطويل في تنفيذ مشروعاتها الموجلة في مجال البتروكيماويات ، مثل مصنع الخصبات الزراعية ، خاصة إذا توافر لها المستوى المرتفع من الدخل عن طريق إضافة دخل المعادن إلى

الدخول الحالي للبترول . ومن المرجح أن ينتجه التركيز إلى الصناعات ، اعتماداً على مصادر عمان المعدنية غير المستغلة ، فهناك النحاس ، والاسبستوس .

وعمان مشغولة للغاية بمحاولة اكتشاف مزيد من البترول من أجل المحافظة على المستوى العالى للتنمية . ورغم الإنجازات الكبيرة التى تحققت فى مجال التنمية ، إلا أنه ما زال هناك الكثير لإنجازه بالنظر إلى الاحتياجات العديدة للبلاد . وقد بدأت مصادر دخل الحكومة تتسع ، لكن ما زال الاعتماد الأساسى على البترول .

وكان إنتاج عمان من البترول قد هبط من ١٣٩ مليون برميل سنوياً فى عام ١٩٧٦ إلى ١١٨ مليون برميل فى عام ١٩٧٨ ، لكن الحكومة متفائلة بإمكان إنتاج كميات أكبر فى الثمانينات .

وتعتبر الثروة المعدنية الجانب الأكثر إشراقاً بالنسبة لمستقبل الاقتصاد العماني ، بجانب الزراعة والثروة السمكية . وتقدر الاحتياطيات الحالية بـ ١٢ مليون طن ، لكن عمليات التنقيب المقبلة سوف تكشف عن مستودعات أكبر . وقد عثر على مستودعات الكروم ، والبرصا ، والزنك ، والنيكل ، ونحاس الحديد ، ومعادن أخرى . وعثر فى الجبال القريبة من صحار على مستودعات للمنجنيز وهناك بشائر العثور على الفحم فى هذه المنطقة أيضاً .

وفى ظفار اكتشف المنقبون الألمان الغرييون مستودعات للفوسفات .

وهناك اعتقاد كبير بأن عمان ستصبح دولة رئيسية فى إنتاج المعادن فى الثمانينات . وإذا استطاعت عمان أن تنتج الكمية المقدرة وهى ٣٠٠٠ طن من النحاس يومياً فى عام ١٩٨٣ ، فلأنها ستصبح بذلك من أكبر الدول المنتجة للنحاس مثل زامبيا وشيلي .

« وليس من شك في أن الروح الدافقة الوثابة ، والنظرة الواعية الصائبة لجلالة السلطان قابوس المعظم لابد لها أن تؤتي ثمارها الطيبة ، خيراً وفيراً ، ونهضة شاملة للشعب العماني .

وإن التاريخ ليسجل للشعب العماني نشاطاً محموداً ومذكوراً في شتى المجالات ، يمتد إلى منابت الحضارة الإنسانية الأولى ، وتنتفع غصونه على مدى العصور ، مما يؤكد أنه للعمانيين طاقات موفورة منخورة ، مستنبقة منها حتماً وثبات قوية مضيئة في مسيرة النهوض الحضاري التي يقودها بفتوة ونشاط جلالة السلطان قابوس آل سعيد » .

* * *

راجعه وأشرف على طبعه الأستاذ عبد المنعم حامر

ثبت المراجع

بالإضافة إلى معلوماتي الخاصة وخبراتي فقد رجعت إلى عدد من المصادر التالية :

- تحفة الأعيان تأليف الشيخ سالم بن عبد الله بن حميد السالمي
 - مذكرات الأميرة سالملة، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي سنة ١٩٧٤
 - مسقط وعمان تأليف ، إيمان سكيت سنة ١٩٧٤
 - الحكم البرتغال في شرقي إفريقيا ، تأليف جاستوس استرانلرز ،
سنة ١٩٦١
 - موجز تاريخ الساحل الشرقي لإفريقية ، تأليف ل. و. هولنج سوورث
سنة ١٩٢٩
 - العقيدة وقلعة المسيح ، تأليف مبارك بن عاطي الحناوي ، سنة ١٩٥٠
 - البحث عن الماضي ، تأليف كويزي ماك كاستر مارتن ، و ،
اسموند برادلي مارتن ، سنة ١٩٧٣
 - تبسيط تاريخ شرقي إفريقيا ، تأليف ه. برتن ، و ، ب. ج. ج. وبلي ،
سنة ١٩٦٣
 - عمان في تقرير خاص ، مقدم من ميد سنة ١٩٧٦
- وبالإضافة إلى ذلك رجعنا إلى تقارير عديدة كتبت عن الصحوة السياسية.
ونائج الانتخابات التي أجريت في زنجبار عند إعداد مخطوطة هذا الكتاب :

محتويات الكتاب

صفحة	الموضوع
٥	تقديم
١٤	الماضى
١٧	عصر ما قبل العرب
١٩	قدوم العرب إلى عمان
٤١	العرب في شرق أفريقيا
٤٧	قدوم البرتغاليين إلى شرق أفريقيا
٥٧	البرتغاليون في عمان
٦١	اضمحلال البرتغاليين
٦٩	ظهور أسرة البوسعيد
٧٧	مباشرة وحصن يسوع
٨١	لامو وباقى
٨٩	الحملة المناهضة للرق
٩٥	الاسلام والمسيحية في شرق أفريقيا
٩٩	زنجبار أثناء فترة الحماية البريطانية
١٠٣	لماذا الثورة في زنجبار ؟
١١٧	عمان وعهد ما قبل قابوس
١٢٩	التمر د في ظفار
١٤٧	وساطة الدول الشقيقة
١٤٩	عهد السلطان قابوس

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٥٤٢ لسنة ١٩٨٠

مطابع سجل العرب

٩ شارع محمد الدين - ت ٩٣٢٧٦



